

أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتَ: فما محل ﴿نكروا﴾؟ قُلْتَ: يحتمل الحركات الثلاث: النسب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتندر به وتذكر تنكيراً؛ لأنَّ النكروا اسم بمعنى: التنكير، والرفع عطفاً على كتاب أو بانه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تندر أي: للإنذار وللنكر.

فإن قُلْتَ<sup>(5)</sup>: النهي في قوله: ﴿فلا يكن﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قُلْتَ: هو: من قولهم لا أرىك ههنا.

أَتِيئُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ من القرآن والسنة ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ من دون الله ﴿أولياء﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن أم امرت باتباع كتاب الله وسنة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تبتغوا من الابتغاء ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾<sup>(6)</sup> ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ: تذكرون بحذف التاء ويتذكرون: بالياء، وقليلاً نصب بتذكرون أي: تذكرون تذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَمَنْ يَنْزِلْ إِلَيْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَكُنْ فِي صُدُوقِكُمْ مِنْهُ لَشَيْءٌ يُرِيدُ

﴿فجاءها﴾ فجاء أهلها ﴿بياتاً﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: بائتين، يقال: بات بياتاً حسناً وبيته حسنة، وقوله<sup>(7)</sup> ﴿هم قائلون﴾ حال معطوفة على بياتاً، كأنه قيل:

النيبين فخلت أمته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الشرف والرزق ﴿ليبيلوكم فيما آتاكم﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضع، والحرُّ بالعبد، والغني بالفقير ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر نعمته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو آت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً ويلة»<sup>(1)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الأعراف مكية

الذَّاسِ ﴿١﴾ كَتَبَ أُولُو إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صُدُوقِكُمْ مِنْهُ لَشَيْءٌ يُرِيدُ وَدَرَجَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾<sup>(2)</sup> وسمى الشك: حرجاً<sup>(3)</sup>؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه<sup>(4)</sup>؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضييق صدره من الأذى ولا ينبسط له، فأتمته الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿لتندرن﴾؟ قُلْتَ: بانزل أي:

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كذب، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأما الزواج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأما قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذف منها، وأو الحال كراهية لاجتماعها، وهي أو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أنَّ أو الحال لا بد أن تمتاز عن أو العطف بمزية ألا تراها تصبح الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جامعي زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قبيحاً، فالأفصح خلافه، فلما =

(1) الثعلبي في تفسيره: وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكوننَّ من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط الفكر بعمتد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتبليج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد مبيناً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتماد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى ذلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعمم المأخوذ من العلامة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي نكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قُلْتُ: هل يقدر حذف المضاف الذي هو: الأهل قبل قرية، أو قبل الضمير في اهلكناها؟ قُلْتُ: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في فجاءها لقوله: ﴿أو هم قائلون﴾.

فإن قُلْتُ: لا يقال جاءني زيد هو فارس بغير واو، فما بال قوله ﴿هم قائلون﴾؟ قُلْتُ: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح أنها إذا عطف على حال قبلها حذفت الواو استتقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل فقوله: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده، وأما جاءني زيد هو فارس فخبث.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ والإهلاك: إنما هو بعد مجيء البأس؟ قُلْتُ: معناه: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾<sup>(1)</sup> وإنما خص هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأقطع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده وقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيما كنا عليه، ويجوز فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم دعواهم بالكعب، ويجوز فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم وإن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، ودعواهم نصب خبر لكان، وإن قالوا: رفع اسم له، ويجوز العكس.

فَلَنَسْتَأْتِيَ الَّذِينَ أُسْرِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْتِيَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ وَنَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

﴿فَلَنَسْتَأْتِيَ الَّذِينَ أُسْرِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أرسل مسند إلى الجار والمجرور وهو إليهم، ومعناه: فلنستأن المرسل إليهم وهم الأمم يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾<sup>(2)</sup> ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم﴾<sup>(3)</sup> ﴿فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِيعْلَمُ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعمّا وجد منهم.

فإن قُلْتُ: فإذا كان عالمًا بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى سؤالهم؟ قُلْتُ: معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بالسننهم وشهد عليهم أنبياءهم.

وَالْوَزْنَ بِمِيزَانٍ الْحَقِّ مَن قُلَّتْ مُّزِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مُّزِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظَاهِرُونَ ﴿٩﴾

﴿وَالْوَزْنَ بِمِيزَانٍ﴾ يعني: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيها، ورفعها على الابتداء وخبره يومئذ والحق صفته أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن الحق أي: العدل وقرئ: القسط، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها السننهم وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب، وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان أو موزون أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ﴿بِآيَاتِنَا يَظَاهِرُونَ﴾ يكذبون بها ظلمًا كقوله ﴿فظلموا

= على المقسم به، فتخلف في حكم القسم من غير، واو موقعة في مثل ﴿والليل إذا يفتشى﴾، والنهار إذا تجلى﴾ وفي مثل، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، ولو قلت في غير التلاوة، وبالليل إذا عسعس، لجاز ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم، لنيابة العاطف منا به، وهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال، عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف لم تخرج عن حدّ الفصاحة إلى الاستتقال، بل أفتت تأكيداً، وإن لم تات بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 109.

= رأيتها تتوسط بينهما، والكلام حينئذ هو الأفضح، أو المتعين علمت أنها ممتازة بمعنى، وخاصية عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصية، فأمّا أن تسلبه حينئذ لا غناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو، ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستتراك في مثل قوله، ولكن لا يشعرون فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف، بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد، لكان فصيحاً، لا حيث فيه، ولا كراهة فالتحقيق، والله أعلم، في الجملة المعطوفة على الحال، أن المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية، لما عطف عليه في الحال، فيستغنى عن واو الحال، كما أنك تعطف

فإن قلت: كيف يكون قوله ﴿إنا خير منه﴾ جواباً لما منعه، وإنما الجواب أن يقول منعه كذا؟ قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وبعلة فضله عليه وهو: أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمور بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أمر به.

قَالَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ قَدِيمًا لَكُنْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿فاهبط منها﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرّ العصاة المتكبرين من الثقلين ﴿فما يكون لك﴾ فما يصح لك ﴿أن تتكبر فيها﴾ وتعصي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً إذا أهنته وفي ضده: قم راشداً، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار البس الصغار، وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نتعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض<sup>(4)</sup>.

فإن قلت<sup>(5)</sup>: لم أجيء إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عبادته ويغويهم؟ قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتنح بها عباده.

قَالَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَعَ زَوْجِكَ وَالْجَنَّةَ كَمَا تَشَاءُ أَلَّا تُخْرِجَكَ مِنْهَا وَأَنَّكَ تَخْرُجُ مِنْهَا كَارِهُمًا إِلَّا مَن تَشَاءُ يَمُوجُ فِيهَا مِثْلَ الْخَيْلٍ تَمُوجُ فِي الْبَحْرِ لَا يَصِلُ إِلَى الْبَرِّ كَذَلِكَ نُفِخُ فِي الصُّورِ يَوْمَ ذَلِكَ لَمَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿فبما أغويتني﴾<sup>(6)</sup> فبسبب إغوائك إياي ﴿لأقعدن لهم﴾ وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفساً

بها<sup>(1)</sup>

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا لَّيْلًا مَّا نَشْكُرُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿مكناكم في الأرض﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصل به إلى ذلك، والوجه تصريح الماء، وعن ابن عامر أنه همز على التشبيه بصحائف.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١٠﴾ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْزَلْتُكَ إِلَى الْأَرْضِ فَتَلَقَّيْتَهُ مِنْ تَلَوٍّ ﴿١١١﴾

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية ﴿من الساجدين﴾ ممن سجد لآدم ﴿ألا تسجد﴾ لا في أن لا تسجد صلة بلبيل قوله ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾<sup>(2)</sup> ومثلها ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾<sup>(3)</sup> بمعنى: ليعلم فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟ قلت: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ﴿إذ أمرتني﴾؛ لأنّ أمري لك بالسجود أوجب عليك إيجاباً واحتماً عليك حتماً لا بد لك منه.

فإن قلت: لم سأل عن المانع من السجود وقد علم ما منعنا؟ قلت: للتوبيخ وإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدراؤه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقاً أنه غير واجب عليه لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

(1) سورة الاعراف، الآية: 103.

(2) سورة ص، الآية: 75.

(3) سورة الحديد، الآية: 29.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل: في التواضع، (الحديث رقم: 8139) وابن أبي شيبة 270/13 كتاب: زهد، باب: كلام عمر رضي الله عنه.

(5) قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان. أحدهما تحريف الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يغوه، أي: لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين، والتقيح، والصلاح، والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سبباً في غيه، وكثيراً ما يؤول فعلاً الله تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل لك من مجاز السببية، لأن الفعل له ملايسات بالفاعل، والمفعول، الزمان، والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مستنداً إلى الله تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدلت على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار، جل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه هذه وضعت القيود في

= رجلحك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة، واللوان مختلفة رآها عند المسجون، أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبيذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك، فعلى هذا يروى حمل هذه الآية يعني: بما كلفني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي، لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى، فمجاز هذه إحدى النزغتين. والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم: أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس نوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(6) قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده، ويلتزم الجواب عنه القدرية، الذين يوجبون على الله تعالى، رعاية المصالح في أفعاله، وأما أهل السنة، فقد أسفوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال، ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقد ر عليه كقوله: ﴿وَأَسْتَفْزَنُ مِنْ أَسْتَعْتَبَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾ (3).

فإن قلت: كيف قيل ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ بحرف الابتداء ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بحرف المجاوزة؟ قلت: المفعول فيه عدى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدي في ذلك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صفة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما نكرنا في تعال ونحوه من المفعول به، قولهم: رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدئ الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل ﴿وَمَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ (4) لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول: جئته من الليل تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (5) وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (6) وأما من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (7) وأما من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (8) ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال تظنيماً بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ (9) وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ يَمَكُ مِنْهُمْ لِأَمَلَانٍ جَهَمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (10)

﴿مَذْمُومًا﴾ من ذامه إذا ذمه. وقرأ الزهري مذومًا بالتخفيف مثل مسول في مسؤل. واللام في ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾

ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.

فإن قلت: بم تعلقت الباء فإن تعلقتها بلاقعدن يصد عنه لام القسم، لا تقول والله يزيد لأمرن؟ قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره فيما أغويتني أقسم بالله لأقعدن أي فبسبب إغوائك أقسم، ويجوز أن تكون الباء للقسم أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضاً لسعادة الأبد فكان جديرًا بأن يقسم به. ومن تكاذهب المجبرة (1) ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبلis أفتقه منه قال: رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ذلك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه أن لفقوا الاكاذيب على الرسول والصحاب والتابعين، وقيل: ما للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتداء لأقعدن وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية قليل شاذ، وأصل الغي الفساد ومنه: غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد في المعدة ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف كقوله:

كما غسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم باطريقة قعد له بطريق الإسلام، فقال له: تدع دين أبائك! فعصاه فاسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتنخرب! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تقتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك! فعصاه فقاتل» (2).

ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (11)

﴿ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو

(2) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة، لتبليغ الحجة في وجوب الرد عليه، وتعيينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهاكفون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصنفوا قوله تعالى متمحاً لله خالق كل شيء، لا كالتقديرية الذين هم يتهاكفون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(1) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة، لتبليغ الحجة في وجوب الرد عليه، وتعيينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهاكفون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصنفوا قوله تعالى متمحاً لله خالق كل شيء، لا كالتقديرية الذين هم يتهاكفون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(2) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة، لتبليغ الحجة في وجوب الرد عليه، وتعيينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهاكفون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصنفوا قوله تعالى متمحاً لله خالق كل شيء، لا كالتقديرية الذين هم يتهاكفون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

﴿من الخالدين﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: من سواتهما بالتوحيد، وسواتهما: بالواو المشددة.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنْ أَسِيرَ ﴿١١﴾.

﴿وقاسمهما﴾ وأقسم لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

فإن قُلْتُ (4): المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿تقاسموا بالله لنبيته﴾ (5) قُلْتُ: كانه قال لهما: أقسم لكما اني لمن الناصحين، وقال له: اتقسم بالله أنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم (6)، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسم له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس عن رنة المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.

فَدَلَّهُمَا بِمُرُورٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوءُ تَبَوُّعِهَا وَطَوَيْعًا يَخُصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَبِّكَ لَبِئْسَ مَا رَدَّيْتَهُمَا رَبُّهُمَا أَرَأَيْتَهُمَا إِذْ تَلَقَّوْا الشَّجَرَةَ وَأَقْبَلَتْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ يُبِينُ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَعْنَا أُنسًا وَإِنْ لَرُّ نَمْفَرٍ لَنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَهْطُوا بِمَضْكَرٍ لِيَعْبُدَ عَدُوًّا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٥﴾.

﴿فدلاهما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة اعتقه، فكان عبده يفعلون ذلك طلباً للعق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله اتخذنا له (7) ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: الشجرة هي السنبل، وقيل: شجرة الكرم ﴿بهدت لهما سواتهما﴾ أي: تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما

موظفة للقسم و﴿لاملان﴾ جوابه وهو ساء مسدّ جواب الشرط ﴿منكم﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ (1) روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك بكسر اللام بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لاملان جهنم منكم أجمعين﴾ على أن لاملان في محل الابتداء ولمن تبعك خبره.

وَتَبَادَرَهُمُ اشْتِكَاؤُكُمْ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةُ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ يَنْتَقِمُ وَلَا تَرْكَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٦﴾.

﴿ويا آدم﴾ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذي الشجرة والأصل الياء والهاء بدل منها.

نُورَسَ لَمَّا الشَّيْطَانُ لِيَدِي لَمَّا مَا دُورَى عَنْهَا مِنْ سَوءِ تَبَوُّعِهَا وَقَالَ مَا نَهَيْتُمْكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٧﴾.

ويقال وسوس: إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره، ومنه: وسوس الحلي وهو: فعل غير متعدّد كقولت المرأة ووعوع الذئب: ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو: الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه ألقاه إليه ﴿لبيدي﴾ جعل ذلك غرضاً له ليسو. هما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً، وفيه (2) دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبلاً في العقول

فإز قُلْتُ: ما للوار المضمومة في ﴿وري﴾ لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قُلْتُ: لأن الثانية مدة كالف وارى يقد جاء في قراءة عبد الله: أوري بالقلب ﴿إلا أن تكونوا ملكين﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وترى: ملكين بكسر اللام كقوله: ﴿وملك لا يبلى﴾ (3)

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أه رين، أحدهما: قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبلاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أن التقبيل والتحسين بالعقل، وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد ظاهره، إذ التحسين، والتقبيل إنما يدركان بالشرع، واسمع، لا بالعقل ومعنى هذا الاطلاق، ولو صدر من سني، أن العقل يدرك المعنى، الذي لأجله حسن الشرع الستر، وقبح الكشف، الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة، وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء، أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس لنلك ووسوسته، بأن الملائكة أفضل إن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى، إلا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة، حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاتب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا =

= تصديقه فيه بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما، وغرهما إذ قال الله تعالى عنه، فدلاهما بغرور، فعمل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره، والله أعلم.

(3) سورة طه، الآية: 120.

(4) قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلطف المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً، مضافاً لإبليس.

(5) سورة النمل، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وهذا التاويل يتم لوجود المقاسمة عن نكر المقسم عليه، وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التاويل المذكور، إلا أن يحل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة: نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى﴾ أنه سمي: التزام موسى، للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

(7) رواه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية.

والريش لباس الزينة أستعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سواتكم، ولباساً يزينكم؛ لأنّ الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿لَتُرَكَّبُوها وَزِينَةً﴾ (4) ﴿ولكم فيها جمال﴾ (5) وقرأ عثمان رضي الله عنه: ورياشاً جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس للتقوى﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمّا الجملة: التي هي ﴿ذلك خير﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأنّ أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأمّا المفرد: الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسواة؛ لأنّ مواراة السواة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خير مبتدأ محذوف أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبي: ولباس التقوى خير، وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدرور والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرئ: ولباس التقوى بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ﴿ذلك من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني: إنزال اللباس ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب نكر بدو السوات وخصف الورق عليها، إظهاراً للنمة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

يَبْقَى ءَادَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسًا لِّرَبِّهِمَا سَوْءَهُمَا إِذْ رَزَقَهُمُ حَوْءًا وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَلَا يَخَافُ الْعَذَابَ وَأَنْذِرْ آلَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا لِنَارٍ مَّوَدِّعِينَ ﴿٦٧﴾

﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة. كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ حال أي: أخرجهما نازعاً لباسهما بأن كان سبباً في أن نزع عنهما ﴿إنه يراكم هو﴾ تحليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجي يكيدهم ويقتلكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إنّ عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ﴿وقبيله﴾ وجنوده من الشياطين (6)، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا

ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني (1)، وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار، وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا بمعنى، جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح ﴿يخصفان﴾ ورقة فوق ورقة على عورتها ليستترا بها كما يخصف النعل بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: يخصفان من أخصف وهو منقول من خصف أي: يخصفان أنفسهما، وقرئ: يخصفان من خصف بالتشديد ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ورق التين ﴿الم انهكما﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبية على الخطأ حيث لم يتحزرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاتباً، قال: فبِعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كذا، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس ونرى وطحن وعجن وخبز. وسمياً (2) ذنبيهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً لأنفسهما وقالوا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات واستصغارهم العظيم من الحسنات ﴿أهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس و﴿بعضكم لبعض عدو﴾ في موضع الحال أي: متعادين يعاديها إبليس ويعاديانه ﴿مستقر﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع إلى حين﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء أجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترأ وحطته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له، ولحووا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

يَبْقَى ءَادَمَ فَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَيِّدُ سَوْءَ رِبِّكَ وَرِيشًا وَرِيَّاسًا لِّلنَّوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى، ثم وكتب، ومنه ﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (3)

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

(4) سورة النحل، الآية: 8.

(5) سورة النحل، الآية: 6.

(6) قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم النبي ﷺ يروم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه، فأخذ عليه الصلاة والسلام، فدعته وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، يلعب به الصبيان، حتى نكر دعوة سليمان عليه السلام، فتركه وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، كان جائزاً لأولياء الله، والمتبعين=

(1) أخرجه ابن ماجه، في كتاب: الطهارة وسننها، باب: النهي أن يرى عورة أخيه (الحديث رقم: 662).

(2) قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي؛ لأنهم يزعمون أنّ اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصفات، وإن لم يتب العبد منها، فهذا معنى قول الزمخشري، وإن كان صغيراً مغفوراً، وإنما سمعت هذا الاعتزال بالخفاء؛ لأنّ هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً أنّ الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لأخذ به، وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

يعيبكم، احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى: انه يعيبكم فيجازيكم على أعمالكم فاخلصوا له العبادة.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ  
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ يُكْسِبُكَ أَنَّكَ مُؤْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فريقًا هدى﴾ وهم الذين أسلموا أي: وفقهم للإيمان  
﴿وفريقًا حق عليهم للضلالة﴾ أي: كلمة الضلالة،  
وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله: وفريقًا  
بفعل مضمّر يفسره ما بعده، كانه قيل: وخذل فريقًا حق  
عليهم الضلالة ﴿إنهم﴾ إن الفريق الذي حق عليهم  
الضلالة ﴿اتخذوا الشياطين أولياء﴾ أي: تولوهم بالطاعة  
فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في  
ضلالهم، وإنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين  
دون الله.

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا  
تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿خذوا زينتكم﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿عند كل  
مسجد﴾ كلما صليتُم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن  
طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم  
يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي  
عليه ضرب وانتزعت عنه: لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب  
أُنزبنا فيها، وقيل: تفاضلًا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من  
الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ  
الرجل أحسن هيئته للصلاة. وكان بنو عامر في أيام  
حجهم لا ياكلون الطعام إلا قوتًا ولا ياكلون سمسًا يعظمون  
بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم:  
﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وعن ابن عباس رضي الله  
عنه: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان:  
سرف ومخيلة<sup>(2)</sup>، ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني  
حائق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من  
علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان،  
فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه،  
قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا  
تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في  
الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في الفاظ يسيرة،  
قال: وما هي؟ قال: قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس

يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة ﴿إننا  
جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي: خلينا  
بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما  
سؤلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من  
الأول.

فإن قلت: علام عطف وقبيله؟ قلت: على الضمير في  
يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشان والحديث، وقرأ  
اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم  
إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن  
وهو الضمير في أنه كان راجعًا إلى إبليس.

وَأَن تَقُولُوا نَحْنُ قَائِلُوا وَجَدَدًا عَلِيًّا أٰبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِن  
اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٢﴾

الفاحشة ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها  
اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاعتدوا بهم، وبأن الله  
تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما<sup>(1)</sup> باطل من العذر؛ لأن  
أحدهما: تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني: افتراء  
على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون لو كره الله منا ما  
نفعله لنقلنا عنه، عن الحسن: إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ  
إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله  
وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا  
وجبتنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر  
بالفحشاء﴾ لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي  
ووجود الصارف فكيف يأمر بفعله؟ ﴿اتقوا لعل الله ما  
لا تعنون﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن  
مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة  
طوافهم بالبيت عراة.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا صُورَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ  
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾

﴿بالقسط﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم  
حسن عند كل ميمز، وقيل: بالتوحيد ﴿واقموا وجوهكم﴾  
وقل أقيموا وجوهكم أي: اقصدا عبادته مستقيمين إليها  
غير مائلين إلى غيرها ﴿عند كل مسجد﴾ في كل وقت  
سجود أو في كل مكان سجود وهو: الصلاة ﴿وادعوه﴾  
واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة مبتغين بها  
وجه الله خالصًا ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما أنشأكم ابتداء

= دعوة الله تعالى، أمرهم بالفحشاء وهم كاذبون في هذه  
الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة؛ لأن الله تعالى يأمر بما  
لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(2) رواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة،  
(الحديث رقم: 2559)، وابن ماجة في كتاب: اللباس، باب: البس ما  
شئت... (الحديث رقم: 3605)، وأحمد في مسنده 181/20، والحاكم  
في المستدرک 135/4.

= لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الرمز مشري يصده عن ذلك  
حجده لكرامة الأولياء؛ لانه عقيدة إخوانه إذا الكرامة إنما يؤتاها  
الولي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر  
من حجدها، والتكذيب بها رقتنا الله الإيمان بالكرامات إن لم تكن  
لها أملاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يمهّد قاعدة  
التحسين والتقيح، ومراعاة الصلاة، والأصلح، واستحالة مخالفة  
ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأن المنكر عليهم =

الدواء، وأعط كل بدن ما عودته<sup>(1)</sup>، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبيباً.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَاللَّيْسَ بِهَا إِزْوَاجٌ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَعُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿زينة الله﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿والطيبات من الرزق﴾ المستلذات من المأكول والمشرب، ومعنى الاستفهام في ﴿من﴾ إنكار تحريم هذه الأشياء، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركائهم فيها ﴿خالصة﴾ لهم ﴿يوم القيامة﴾ لا يشركهم فيها أحد.

فإن قلت: هلا قيل هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وإن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار﴾<sup>(2)</sup> وقرئ: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خير بعد خير.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّيْسَ بِشَيْءٍ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿الفواحش﴾ ما تفاحش قبحه أي: تزايد وقيل: هي ما يتعلق بالفروج ﴿والإثم﴾ عام لكل نيب، وقيل: شرب الخمر ﴿والبغي﴾ الظلم والكبر افرده بالنكر كما قال: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾<sup>(3)</sup> ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾<sup>(4)</sup> فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره ﴿وان تقولوا على الله﴾ وأن تتقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةٌ آجِلٌ وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْدِرُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿ولكل أمة أجل﴾ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم. وقرئ: فإذا جاء أجلهم، وقال: ﴿ساعة﴾؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة يريد أقصر وقت وأقربه.

يَتَّبِعُ آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَكْفُرُ بِمَا فِي آفْسَانِ وَأَسْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَمْحَىٰ الْآثَارَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾.

﴿إنما ياتينكم﴾ هي: إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزم فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم، وقرئ: تاتينكم بالفاء.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتَّخِذُ الْوَيْلُ مِنَ اللَّهِ مَخِيلًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا فَأَنْهَوْهُمْ عَنْهَا فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا سِهَابًا كَمَا كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿فمن أظلم﴾ فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له أي: إلى وقت وفاتهم وهي: حتى التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية وهي: إذا جاءتهم رسلنا قالوا و﴿يتوفونهم﴾ حال من الرسل أي: متوفيهم، والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون ﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ولا نتتبع بهم اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه وأنهم لم يحمده في العاقبة.

قَالَ ادْعُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّنَ الْبَنِي وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كَمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَمَّا كُنْتَ أَخِيًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جِيماً قَالَتْ أَخْرَجْتُهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَكْرَمُوا عَلَيْنَا عَذَابًا يَمُنُّونَ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْتُهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عِلْمًا مِن فَضْلِ فَذَرُونَا أَلْمَدَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿قال الخلوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة: لأولئك الذين قال فيهم ﴿فمن أظلم ممن افتدى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾<sup>(5)</sup> وهم كفار العرب ﴿في أمم﴾ في موضع الحال أي: كائنين في جملة أمم وفي غمارهم مصاحبين له أي: ادخلوا في النار مع أمم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ وتقدم زمانهم زمانكم ﴿لعنت أختها﴾ التي ضلت بالافتداء بها ﴿حتى إذا ادركوا فيها﴾ أي: تداركوا بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قالت أخواهم﴾ منزلة وهي الاتباع والسفلة ﴿لأولاهم﴾ منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى: لأولاهم لأجل أولاهم؛ لأنّ خطابهم مع الله لا معهم

= ينف أن يكون به سلطان، وكان أصل الكلام، وأن تشركو بالله ما لا سلطان به، فينزل، فيكون على طريقة. على لا حب، لا يهتدي بعناره.

(5) سورة الانعام، الآية: 37.

(1) قال الزيلعي، غريب جداً 460/1.

(2) سورة البقرة، الآية: 126.

(3) سورة النحل، الآية: 90.

(4) قال أحمد: وإنما يعني: التهكم منه؛ لأنّ الكلام جرى مجرى ما له سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به، ولم =

لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ: في سم بالحركات الثلاث. وقرأ عبد الله: في سم المخيط والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وَكُنُكُ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفطيع ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ليؤنن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأن كل من أجرم عوقب وقد كثره فقال و ﴿كُنُكُ﴾ نجزي الظالمين ﴿لأن كل مجرم ظالم لنفسه ﴿مهاده﴾ فرأش ﴿غواش﴾ أغطية وقرئ: غواش بالرفع كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ (4).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصَابَ النِّجْمَ ثُمَّ فِيهَا جَنَّاتٌ ﴿١٤﴾ وَرَبَّنَا مَا فِي صُؤْرِهِمْ مِن غَلٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِمَ هُنَا لِمَ هُنَا وَمَا كُنَّا لِنُبْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جِئْتُمُوهَا وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَرَبَّنَا إِنَّا أُلِّمْنَا لَنُفْسِنَا أَهْلَ الْجَنَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا سَمِيعًا ﴿١٦﴾

في قراءة عبد الله ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتننه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: لا تكلف نفس. من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزاع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف، وعن علي رضي الله عنه: إنني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (5) ﴿هدانا لهذا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿وما كنا لنهتدي﴾ اللام (6) لتوكيد النفي يعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو على أنها جملة موضحة للأولى ﴿بلقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فكان لنا لطفاً وتنبهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً واعتباطاً بما نالوا وتلذذاً بالكلم به، لا تقرباً وتعبداً كما نرى من

﴿عذاباً ضعفاً﴾ مضاعفاً ﴿لكل ضعف﴾ لأن كلاً من القادة والاتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ: بالياء والتاء.

﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لكل ضعف﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة أو من قول الله لهم جميعاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ أَمْلُكُ فِي سَيِّئِ لَعْنَتِكَ وَكَذَلِكَ يُجْزَى الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوِيْمِهِ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ يُجْزَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾.

﴿لا تفتح لهم ابواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ (1) ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ (2) وقيل: إن الجنة في السماء فالمعنى لا يؤنن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ﴿ففتحتنا ابواب السماء﴾ (3) وقرئ: لا تفتح بالتشديد ولا يفتح بالياء، ولا تفتح بالتاء والبناء للمفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات، وبالياء على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل بوزن القمل، وسعيد بن جبیر: الجمل بوزن النخري، وقرئ: الجمل بوزن القفل، والجمل بوزن النصب، والجمل بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغليظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع؛ لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خريت للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخزات الإبر، والجمل مثل في عظم الجرم قال:

جسم الجمال وأحلام العصافير

إن الرجال ليسوا بجزر تراء منهم الأجسام، فقيل:

= يتوقف ذلك على خلقه تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشري ذلك جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فانصف من نفسك وأعرض قول القائل المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله، أي: يخلق له الهدى على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق، وما كنا لنهتدي، لولا أن هدانا الله، وانظر تباين هذين القولين، أعني: قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة، «في مقعد صدق»، واختار لنفسك، أي: الفريقين تقتدي به، وما أراك، والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا لقول المحكي عن أولياء الله في دار السلام، منوهاً به في الكتاب العزيز قول قديري ضال تنبئ مع هواه، وتخصبه في دار الغرور، والزوال نسال الله حسن العاقب، والمآل.

(1) سورة فاطر، الآية: 10.

(2) سورة المطففين، الآية: 18.

(3) سورة القمر، الآية: 11.

(4) سورة الرحمن، الآية: 24.

(5) رواه ابن شيبان في مصنفه 282/15، كتاب: الجمل، باب: سير عائشة.

(6) قال أحمد: وهذه تكفج وجوه القدرية بالرء، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لد يهتد، وأما القدرية، فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذا مهتد، وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفي زعمهم: إن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا

كُتِبَ تَتَكَبَّرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلَؤَالَى الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ يَرَحَمَهُمْ  
أَدْعُوا إِلَىٰ مَا نَسَبْتُمْ عَلَىٰكُمْ وَلَا تَنْتَهُمْ تَحَرُّوهُمْ ﴿٤٩﴾.

﴿وبينهما حجاب﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين  
الفريقين وهو: السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فصُرب  
بينهم بسور﴾<sup>(3)</sup> ﴿وعلى الأعراف﴾ وعلى أعراف الحجاب  
وهو: السور المضروب بين الجنة والنار وهي: أعاليه جمع  
عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿رجال﴾ من  
المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم  
كانهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن  
يأذن الله لهم في دخول الجنة ﴿يعرفون كلاً﴾ من زمر  
السعداء والأشقياء ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله  
تعالى بها يليهم الله تلك أو تعرفهم الملائكة. إذا نظروا  
إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم ﴿وإذا صرفت  
أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا ما هم فيه من  
العذاب استعانوا بالله وفرغوا إلى رحمته أن لا يجعلهم  
معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم  
﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ إشارة لهم  
إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم  
ويحتقرونهم لفرغم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا  
يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ يقال  
لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا  
على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم  
ويقولوا ما يقولون، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر  
الأعمال، وأن التقدّم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق  
عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه  
فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على  
إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم  
بسيماهم التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر،  
فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه،  
وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس  
عملاً، وقوله: ﴿إذا صرفت أبصارهم﴾ فيه أن صارفاً  
يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا. وقرأ

رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله  
للفرح لا للقرية ﴿أن تلکم الجنة﴾ أن مخفة من الثقيلة  
تقديره ونودوا بأنه تلکم الجنة ﴿أورثتموها﴾ والضمير  
ضمير الشأن والحديث، أو تكون بمعنى أي؛ لأن المناداة  
من القول كأنه قيل<sup>(1)</sup>: وقيل لهم أي تلکم الجنة أورثتموها  
﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب أعمالكم لا بالفضل كما  
تقول المبطله.

وَأَدْعَىٰ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبَ النَّارِ إِنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَجَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ  
وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَمَّ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى  
 الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَحْيَوْنَ عِوَابًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
 كٰرِهُونَ ﴿٥٠﴾.

أن في ﴿أن قد وجدنا﴾ يحتمل أن تكون مخفة من  
الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت أنفاً، وكذلك ﴿أن  
لعنة الله على الظالمين﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً  
بحالهم وشماتة بأصحاب النار وزيادة في غمهم، ولتكون  
حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم  
﴿لعنة الله على الظالمين﴾ وهو ملك يأمره الله فينادي  
بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار، وقرئ: أن لعنة الله  
بالتشديد والنصب، وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن  
على إرادة القول، أو على إجراء أئن مجرى قال.

فإن قلت<sup>(2)</sup>: هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ﴿ما  
وعدنا ربنا﴾؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه،  
ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث  
والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم  
كانوا مكذبين بذلك أجمع؛ ولأن الموعود كله مما ساءهم،  
وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فاطلق لذلك.

وَبَيْنَمَا جَاءَ وَعَلَى الْأَعْرَابِ رِجَالٌ يَمْرُؤُونَ كَلًّا يَسْتَعْمُونَ وَآدَارًا أَحْسَبَ  
الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ  
أَبْصَارُهُمْ بِلِقَاءِ أَحْسَبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ جَعَلْنَا مَعَ الْفٰرِّينَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَدْعَىٰ  
أَحْسَبُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا يَمْرُؤُهُمْ يَسْتَعْمُونَ قَالُوا مَا آفَقْنَا عَنْكُمْ جَمْعًا وَمَا

= بوجودها، ولا يتضرر بتركها تعالى، وتقصد عن ذلك ويطلقون  
القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها، أقطعهم بحق مستحق  
على الله تعالى، لا تفضل لعليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه  
بعض الناس من مديانه، وانظر أي: الفريقين المذكورين أحق بلقب  
المبطله والسلام.

(2) قال أحمد: ولقائل أن يقول، ولو ذكر المفعول حسب ما ذكره في  
الأول، فقيل فهل وجدتم ما وعكم ربكم حقاً، لكان الفعل مطلقاً  
أيضاً، باعتبار الموعود به؛ لأنه لم ينكر، فكان يتناول كل موعود  
من البعث والحساب، والعقاب الذي هو أنواع من جملتها، التحسر  
على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع  
على الموعودين، فالوجه أنه إيجاز وتخفيف، واستغناء عنه بالأول،  
والله أعلم.

(1) قال أحمد: يعني بالمبطله قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام:  
﴿لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته﴾،  
قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله  
بفضل منه ورحمة»، فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم  
أهل السنة، قيل لهم فما معنى قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي  
أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة  
جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب  
للعباداة وجوب الديون، التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين النليلين  
على وجه يطابق، دليل العقل الدال على أن الله تعالى يستحيل أن  
يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من  
الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطله، وحاكم نفسك إليها،  
ثم إذا وضع لك أنهم براء في هذا البر، فأعرضه على قوم زعموا  
أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم، التي لا ينتفع =

(3) سورة الحديد، الآية: 13.

عليها و ﴿هدى ورحمة﴾ حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ آتِنَا بِالْحَقِّ فَقَدِ لَنَا مِنْ شُعْمَاءَ فَيَسْتَعْمِلُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّهُمْ نَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَرَضُوا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿إلا تأويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: تبين وصح أنهم جاؤوا بالحق ﴿نرد﴾ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نرد، ورافعه وقوعه موقفاً يصلح للاسم كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد، وقرأ ابن أبي إسحاق: أو نرد بالنصب عطفًا على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى: حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن: بنصب نرد ورفع فنعمل بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ بِالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ مَسْحَرَتِ بِأَمْرِهِ آيَاتُ الْخَلْقِ وَالْأَمْثَلُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ وقرئ: يغشى بالتشديد أي: يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحملهما جميعاً، والدليل على الثاني: قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثاً حسن الملازمة لقراءة حميد ﴿بأمره﴾ بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أي: خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها، سمي ذلك أمراً على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع. ولما نكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُنْتَبِذِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِمَدِّ أَيْدِيكُمْ وَأَعْوَجُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿تضرعاً وخفية﴾ نصب على الحال أي: ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً، والتضرع<sup>(1)</sup> تفعل من الضراعة

الاعمش: وإذا قلبت أبصارهم. وقرئ: أدخلوا الجنة على البناء للمفعول، وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قلت: كيف لام هاتين القراءتين؟ قله ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾؟ قلت: تأويله أدخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فإن قلت: ما محل قوله: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كان سائلاً سال عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أن يدخلهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم يياسوا، ويجوز أن يكون له محل بأن يقع صفة لرجال. ما أغنى عنكم جمعكم المال أو كثرتكم واجتماعكم. وما كنتم تستكبرون، واستكباركم عن الحق وعلى الناس وقرئ: تستكبرون من الكثرة.

وَأَنذَرْنَا أَمْمَاتٍ الْنَّارَ أَمْحَبَّ الْجَنَّةَ أَنِ آمِنُوا عَلَيْنَا مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَّا رَزَقْنَاهُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿أفيضوا علينا﴾ فيه ليليل على أن الجنة فوق النار ﴿أو سما رزقكم الله﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد أو القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله:

علفتها تبنياً وماء بارداً

وإنما يطلبون ذلك مع ياسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن ﴿حرمهما على الكافرين﴾ منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يدرم عليه ويحظر كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ نَهْوًا وَلَيْسَ وَعْرَهُمُ الْحَبِيرَةُ الَّذِينَ قَالُوا نَسْنَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٧﴾

﴿فاليوم ننسأهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا ينكرونهم به ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ كما فعلوا بلقائه فعل الناسين فلم يخطروه ببالهد ولم يهتموا به.

رَدَدْتُ جَنَّتَهُمْ بِكُتُبِ فَصَلَّنَهُ عَلَيَّ مَلَكٌ رَحْمَةً لِقَوْلِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف تفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيمًا قيمًا غير ذي عوج، وقرأ ابن محيصن: فصلناه بالضاد المعجمة بمعنى: فصلناه على جميع الكتب عالمين أنه أهل للتفضيل

(1) قال أحمد: وحسبك في تعين الأسرار في الدعاء، اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلاص به، كالإخلاص بالضرعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجبوى، فذلك دعاء لا خفية =

= ولا وقار يصحبه، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ، والصياح في الدعاء خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشد، وتستد المسامع، وتستك، وتهتج الداعي بالناس، ولا يعلم =

وهو: الذي أي: تذللاً وتملقاً. وقرئ: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إنَّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أتركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرين على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾<sup>(1)</sup> وقد أتتني على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾<sup>(2)</sup> وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصباح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل<sup>(3)</sup>، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً﴾<sup>(4)</sup> وإنما نكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبه ذلك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضعيف، أو لأن تانيت الرحمة غير حقيقي.

وَالَّذِي كَلَّمْتُ بِحُجْرٍ بَنَانُهُ يَأْتِي رَيْبُهُ وَالَّذِي حَبُّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَدًا كَذَلِكَ نَصْرُ الْأَكْبِتِ لِتَوَرُّ يَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذبة الكريمة التربة ﴿والذي حبت﴾ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿ببئذن ربه﴾ بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وأفياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نكدًا﴾ والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ: يخرج نباته أي: يخرج البلد وينبته، وقوله: ﴿والذي حبت﴾ صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا، فحذف المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه: إلا أنه كان مجروراً بآراءً فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر وبنات الذي حبت. وقرئ: نكدًا بفتح الكاف على المصدر أي: ذا نكد ونكدًا بإسكانها للتخفيف

كقوله: نزه عن الريب بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبية من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: أدم ونزيتته منهم خبيث وطيب، وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به كالأرض الطيبة أصابها الغيث فانبثت، والكافر بخلاف ذلك وهذا التمثيل واقع على أثر نكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نرديها ونكرها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها، وقرئ: يصرف بالياء أي: يصرفها الله.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ

وهو: الذي أي: تذللاً وتملقاً. وقرئ: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إنَّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أتركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرين على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾<sup>(1)</sup> وقد أتتني على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾<sup>(2)</sup> وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصباح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل<sup>(3)</sup>، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً﴾<sup>(4)</sup> وإنما نكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبه ذلك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضعيف، أو لأن تانيت الرحمة غير حقيقي.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُرُءًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَفَّهْتَهُ لِسِكِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفِخُ النَّوْفَ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

قرئ: نشرًا وهو: مصدر نشر وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكانه قيل نشرها نشرًا، وإما على الحال بمعنى: منتشرات، ونشرًا جمع نشور، ونشرًا تخفيف نشر كرسل ورسل، وقرأ مسروق: نشرًا بمعنى: منشورات فعل بمعنى: مفعول كتنقض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرًا جميع بشير وبشرًا بتخفيفه، وبشرًا بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى: بشره أي: بأشرا وبشرى

أنه جميع بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة الآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء، والأطفال ليست خارجة عن صميم الغفاد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر، وأوفى، وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه.

(1) سورة الأعراف، الآية: 55.

(2) سورة مريم، الآية: 3.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، (الحديث رقم: 1480) عن سعد، وأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مغفل في كتاب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء بالدعاء (الحديث رقم: 3864) وأحمد في مسنده 87/4، والحاكم في المستدرک (540/1).

(4) سورة طه، الآية: 82.

أبلغكم بالتخفيف.

فإن قُلْتُ (2): كيف موقع قوله ﴿أبلغكم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة لرسول.

فإن قُلْتُ: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قُلْتُ: جاز ذلك؛ لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه كما قال:

أنا الذي سمعتن أمي حيدرہ

﴿رسالات ربي﴾ ما أوحى إلي في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة ﴿وانصح لكم﴾ يقال: نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: من صفات الله وأحواله يعني قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين، وقيل: لم يسمعوا يقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد، وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلي بها.

أَوْ عَجَبْتُ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى نَجْوَى نَسْوِكَ لِيُنذِرَكَ  
وَلِيُنْفِئَكَ وَأَمَّا مَا لَا تُفَكِّرُونَ (13).

﴿أو عجبتم﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿إن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم كقوله: ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾ (8) وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين﴾ (4) يعنون: إرسال البشر ﴿ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ (5) ﴿لينذركم ولينذركم﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلمكم ترحمون﴾ ولترحموا

غيره إِنَّ آتَاكَ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (9).

﴿لقد أرسلنا نوحاً﴾ جواب قسم محذوف. فإن قُلْتُ: ما لهم لا يكاون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقل عنهم نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لنأمرها

قُلْتُ: إما كان ذلك؛ لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو: معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة وكان نجاراً وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجر على اللفظ، والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيداً وغير زيد.

فإن قُلْتُ: فما موقع الجملتين بعد قوله: ﴿اعبدوا الله﴾؟ قُلْتُ: الأولى: بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه نون ما كانوا يعبدون من دون الله. واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو: الطوفان.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَكَلِي بُيُوتٍ (10) قَالَ يَنْفَوِرُ  
لَيْسَ سَكَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (11) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي  
رَبِّي وَصَحِّ لَكُمْ وَأَعَلُّكُمْ مِنْ أَنَّهُ مَا لَا تَفَكِّرُونَ (12).

﴿الملا﴾ الأشراف والسادة وقيل: الرجال ليس معهم نساء ﴿في ضلال﴾ في زهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قُلْتُ (1): لم قال ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قُلْتُ: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ من نفي الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: لك تمر؟ فقلت مالي تمرة.

فإن قُلْتُ: كيف وقع قوله ﴿ولكنني رسول﴾ استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟ قُلْتُ: كونه رسولاً من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحة لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن الضلالة. وقرئ:

(2) قال احمد: وقد استترك ابن جنى قوله أبي الطيب:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أبيه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلاً بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب، (قال: فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه، قال: يا قوم ولم يقل، فقال قلت: لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل فما قال هود حينئذ قيل قال يا قوم، وكذلك قال الملا).

(3) سورة آل عمران، الآية: 194.

(4) سورة القصص، الآية: 36.

(5) سورة فصلت، الآية: 14.

(1) قال احمد: تعليقه كون نفيها أبلغ من نفي الضلال، بأننا أخص منه غير مستقيم، والله أعلم، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص بخلاف العكس، ألا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً، ولو قلت: هذا ليس بحيوان لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، والتحقيق في الجواب أن يقال الضلالة أنى من الضلال، وأقل؛ لانا لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه، وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

بالتقوى إن وجدت منكم.

كَذَّبُوهُ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾

﴿والذين معه﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافت، وستة ممن آمن به.

فإن قلت: ﴿في الفلك﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بمعه كانه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان ﴿عميين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين، وقرىء عامين، والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث، ونحوه قوله ﴿رضائق به صدرك﴾ (١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَعَاءٍ وَإِنَّا لَنُلَاقُكَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾

﴿لخاهم﴾ واحداً منهم من قولك: يا اخا العرب للواحد منهم وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم أتهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صيقه وأمانته وهو: هود بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و ﴿لخاهم﴾ عطف على ﴿نوحاً﴾ و ﴿هوداً﴾ عطف بيان له.

فإن قلت (٢): لم حذف العاطف من قوله ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؟ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقول: قال يا قوم اعبداوا الله، وكذلك ﴿قال للملأ﴾.

فإن قلت: لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ بون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلفاء الآخرة﴾ (٣) ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير.

قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ فِي سَعَاءَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

في ﴿سفاهة﴾ في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز، أراوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة

الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن اللحم والإغضاء وترك المقابلة بما قال لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أنبيالهم على ما يكون منهم.

أَتَيْنَكُم رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

﴿ناصر أمين﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والامانة فما خفي أن اهتم، أو أنا لكم ناصر فيما ادعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه.

أَوْ عَجَبْتَ أَنْ جَاءَكُم بَشِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ يَسْتُزَكِّيكُمْ وَأَذَكَّرُؤَا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خَلَفَاءَ مِنْ بَدِي قَوْمٍ نُوْحٍ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَتَاذَكَّرُؤَا ءَالَآءَ اللَّهِ لَمَلَكُؤُا قَلِيلُونَ ﴿١٩﴾

﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: خلقتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿في الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول والبدانة، قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً وأطولهم مائة ذراع ﴿فانكروا آلاء الله﴾ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء إلا، نحو أني وإناء، وضيع واضلاع، وعنب واعناب.

فإن قلت: إذ في قوله: ﴿إذ جعلكم خلفاء﴾ ما وجه انتصابه؟ قلت: هو مفعول به وليس بظرف أي: انكروا وقت استخلافكم.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّبِعَ اللَّهَ وَنَحَدِّثَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَمِينُؤَا ءَابَاؤُنَا فَأَنَّا بِمَا تَوَدَّؤَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠﴾

﴿اجئتنا لنعبد الله وحده﴾ انكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه وآلفاً لما صادفوا آباءهم يتبينون به.

فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: ﴿اجئتنا﴾؟ قلت: فيه أوجه؛ أن يكون ليهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إلي جاء قومه يدعوهم (٤)، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة فكانتهم قالوا: اجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرض بذلك

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الوحي، باب (٣) (الحديث رقم: ٣)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: ٤٠١).

(٢) قال أحمد: وحذف العاطف من المقالة ألا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تقاليد موسى عليه السلام، وفرعون كيف أسقط نكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعدة فيها، والسر في ذلك، والله أعلم أن العاطف ينتظم الجمل، حتى يصيرها كالجمل الواحد، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناه، والله أعلم.

والقصد كما يقال: ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب، كانواهم قالوا: أقصدتنا لعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ﴿فَاتِنَّا بِمَا تَعْدِنَا﴾ استعجال منهم للعذاب.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَرَعَصٌ آتَجْلِبُونِي فِي  
أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمْهَا أَشْرَ وَأَبَاؤَكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ  
فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَجْبِنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ  
رَجَعُوا مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ  
﴿٧٧﴾

﴿قد وقع عليكم﴾ أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونحوه: قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان: أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء بيكي فقال له: يا بني ما لك؟ قال: لسعني طيور كأنه ملتفت في بردي حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر والرجس: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب ﴿في أسماء سميتوها﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الآلهة فيها معدوم محال وجوده وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من لونه من شيء﴾<sup>(1)</sup> ومعنى سميتوها: سميت بها من سميته زيذاً. وقطع دابره استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن عاد قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها، صداء وضمود والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأفضلهم حسياً، فكذبوه وازدادوا عتواً وتجبراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سالم بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتنم إسلامه، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصحابه، فاقسموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجراتان - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمله ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

الاياقيل ويحك قم فهبنم لعل الله يسقينا غماما  
فيسقي أرض عاد إن عاداً قد امسوا ما يبينون الكلاما  
فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثنون من البلاء الذي

نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم نخلوا مكة فقال: قيل اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحاباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها و ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾<sup>(2)</sup> فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فاتوا مكة فعبوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ونجى الله المؤمنين.

وَالَّذِي نُمَدُّ أَهْلَهُمْ صَليماً قَالَ يَقَوِّرُ آتَيْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ  
إِلَهٍ غَيْرِهِ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ  
لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ  
وَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

قري: وإلى ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة، إلى ثمود بالصرف بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت ثمود: لقله مائها من الثمد وهو: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى ﴿قد جاءتكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتها. وكانه قيل: ما هذه البينة؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية: نصب على الحال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال لكم خصوصاً وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فعل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله، وروي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام وكانوا قوماً عربياً وصالح من أوسطهم

ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا مستضعفون، فحذرهم وأنزهرهم فسألوه آية فقال: آية آية تريبون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيونا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وتدعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجيبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكائبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شاكلت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجيناك، فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبهيا إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فأمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبًا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترقهه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفجح فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أو انبهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فزرعت مصدر الناقة فوجدته ستين نراعًا، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها انعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيها وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها واقتسما لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم حمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفئوا بالانطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا **﴿تناكل في أرض الله﴾** أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تاكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم **﴿ولا تمسوها بسوء﴾** لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله، ويروي أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلن أحد منكم القرية،

سباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنزهرهم فسألوه آية فقال: آية آية تريبون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيونا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وتدعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجيبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكائبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شاكلت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجيناك، فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبهيا إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فأمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبًا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترقهه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفجح فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أو انبهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فزرعت مصدر الناقة فوجدته ستين نراعًا، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها انعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيها وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها واقتسما لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم حمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفئوا بالانطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا **﴿تناكل في أرض الله﴾** أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تاكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم **﴿ولا تمسوها بسوء﴾** لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله، ويروي أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلن أحد منكم القرية،

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلُقَاءَ مِنْ بَدَدٍ عَاكِ وَأَبْوَأَكُمُ فِي الْأَرْضِ نَجْدُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَحْتُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَأَذْكُرُوا مَا آتَى اللَّهُ وَلَا تَكْفُرُوا فِي الْأَرْضِ مُنِيرِينَ ﴿٧٦﴾.

**﴿ويواكم﴾** ونزلكم والمبءة المنزل **﴿في الأرض﴾** في أرض الحجر بين الحجاز والشام **﴿من سهولها قصوراً﴾** أي: تبونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والأجر. وقرأ الحسن: وتحتون بفتح الحاء، وتحتاتون بإشباع الفتحه كقوله:

ينباع من نفري أسيل حزة

فإن قُلْتُ: علام انتصب **﴿بيوتاً﴾**؟ قُلْتُ: على الحال كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً وابر هذه القصبه قلمًا، وهي من الحال المقدرّة؛ لأنّ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ولا الثوب ولا القصبه قميصاً وقلمًا في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

قَالَ أَمَّا الَّذِينَ أَنْكَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَمَّنُّونَ أَنْ مَلَائِكَةً مُرْسِلِينَ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنُكُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٨﴾.

**﴿الذين استضعفوا﴾** الذين استضعفهم رؤساء الكفار واستنلوهوم و **﴿لمن آمن منهم﴾** بدل من الذين استضعفوا.

فإن قُلْتُ<sup>(3)</sup>: الضمير في **﴿منهم﴾** راجع إلى ماذا؟ قُلْتُ: إلى **﴿قومه﴾** أو إلى **﴿الذين استضعفوا﴾**.

فإن قُلْتُ: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قُلْتُ: نعم وذلك أنّ الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل من آمن مفسراً لمن استضعف منهم، فدلّ أنّ استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ودلّ أنّ المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين **﴿اتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربه﴾** شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية كما تقول للمجسمة: اتعلمون أنّ الله فوق العرش.

(2) رواه الحاكم في المستدرک 3/141.

(3) قال أحمد: فقلوه لمن على الأوّل بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وعلى الثاني بدل بعض من كل.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر (الحديث رقم: 4419) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا... (الحديث رقم: 7389).

قومه»<sup>(6)</sup>. وروي أن صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه عليه السلام مرّ بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فنذكر قصة أبي رغال وأنه نفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدوه وبحثوا عنه بأسياقهم فاستخرجوا الغصن»<sup>(7)</sup>.

تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرُ لَقَدْ أَفْلَحْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٦﴾

﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولى مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول ﴿يا قوم لقد﴾ بنلت فيكم وسعي ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم ﴿لا تحبون الناصحين﴾ ويجوز أن يتولى عنهم تولى زاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي: أن عقروهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى النخان ساطعاً فلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسائة دار، وروي: أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قلت: كيف صحّ خطاب الموتى وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى القى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَنْتَأْتُونَهُ النَّجْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ولووطاً﴾ وأرسلنا لووطاً و ﴿إذ﴾ ظرف لأرسلنا، أو وانكر لووطاً وإذ بدل منه بمعنى وانكر وقت ﴿قال لقومه أنتأتون الفاحشة﴾ اتفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿ما سبقكم بها﴾ ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله، ومنه قوله عليه السلام: سبقك بها عكاشة ﴿من أحد من العالمين﴾ من الأولى

فإن قلت<sup>(1)</sup>: كيف صحّ قولهم ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ جواباً عنه؟ قلت: سألوهم عن العلم بإرساله فجعلا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة<sup>(2)</sup> ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً.

فَمَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آتِنَا بِمَا صَدَقْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فمقعروا الناقة﴾ أسند المعر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم ﴿وعتروا عن أمر ربهم﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله ﴿فذرهما تأكل في أرض الله﴾<sup>(3)</sup> وشأن ربهم وهو: دينه. ويجوز أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم كان أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم، ونحو عن هذه ما في قوله: ﴿وما فعلته عن أمري﴾<sup>(4)</sup> ﴿أنتنا بما نعينا﴾ أربوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلوماً، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

فَدَعَبْنَهُمْ أَرْبَعَةً فَمَسَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيئِينَ ﴿٧٨﴾

﴿الرجفة﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿في دارهم﴾ في بلادهم أو في مساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامسين لا يتحركون موتى يقال: الناس جثم أي: تعود لا حراك بهم ولا ينبسون نسبة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها<sup>(5)</sup>. وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي، وعمر جابر أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تسالوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة» فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله، قالوا: من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب

(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

(4) سورة الكهف، الآية: 82.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: الشراب من في السقاء (الحديث رقم: 3719) والترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل لحوم الجلالة والبياتها (الحديث رقم: 1825)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: النهي عن لبن الجلالة، (الحديث رقم: 3421).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/320، وأحمد في المسند 3/296.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال (الحديث رقم: 3088).

(1) قال أحمد: وقولهم إنابة مؤمنون ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(2) قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين، لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فثبت إرساله تهكماً، ليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وعلواً في الإصرار.

زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبويض.

فإن قُلْتُ: ما موقع هذه الجملة؟ قُلْتُ: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله: أتاتون الفاحشة، ثم ويخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها، أو على أنه جواب السؤال مقدر كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

إِنَّكُمْ لَأَتَاوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٨١﴾

﴿أنفكم لتاتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتاتون الفاحشة﴾ والهمزة مثلها في أتاتون للإنكار والعظيم، وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتاتون الرجال من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له أي: للاشتهاء، لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر. ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه، أو حال بمعنى مشتتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بيل﴾ أنتم قوم مسرفون ﴿أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو: أنهم قوم عاندتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ونحوه ﴿بيل﴾ أنتم قوم عابون ﴿١﴾.

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يُّظَاهِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم وقولهم: ﴿إنهم أناس يظهرون﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهّد.

فَأَجَبْتُهُ وَأَهْلِيهِ إِلَّا أَنرَأَيْتَهُ كَانَتْ مِنْكَ الْفَتْرَيْنِ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَاظْلُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَيْبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿وأهله﴾ ومن يختص به من نويه أو من المؤمنين ﴿من الغابرين﴾ من النين غبروا في ديارهم أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موابية لأهل سلوم، وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت، وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذائهم، وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تجاراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

فإن قُلْتُ: أي فرق بين مطر وأمطر قُلْتُ: يقال (2) مطرتهم السماء وواد ممطور، وفي نوابغ الكلم حري غير ممطور حري أن يكون غير ممطور، ومعنى: مطرتهم أصابتهم بالمطر كقولهم غانتهم وويلتهم وجادتهم ورهنتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (3) ﴿وأمطرننا عليهم حجارة من سجيل﴾ (4) ومعنى ﴿وأمطرننا عليهم مطراً﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً يعني: الحجارة، ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾ (5).

وَأَنَّكَ مَدِينَةٌ أَنهَافُ شَعْبًا قَالِ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قد جاءكم بيينة من ربكم﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتهاه عما نهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

فإن قُلْتُ: ما كانت معجزته؟ قُلْتُ: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: ﴿قد جاءكم بيينة من ربكم﴾ ولأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه وكان متنبئاً لا نبياً، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فيه، ومن معجزات شعيب عليه السلام ما روى من محاربة

(1) سورة الشعراء، الآية: 166.

= الرباعية، ولكن اتفق أن المساء لم ترسل شيئاً سوى المطر، إلا وكان عذاباً، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع، فنبه على تحقيق الأمر فيه، وأحسن، وأجمل.

(2) سورة الانفال، الآية: 82.

(3) سورة الحجر، الآية: 74.

(4) سورة الشعراء، الآية: 173.

(2) قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من يقول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهم أنها تفرقه وضعية، فبين أن أمطرت، معناه: أرسلت شيئاً على نحو المطر، وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات، والإرزاق مثلاً، كالمن والسلوى لجان أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي: أرسلتها إرسال المطر، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة =

ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعده وصدوه.

فإن قُلْتُمْ: لإم يرجع الضمير في ﴿أمن به﴾ قُلْتُمْ: إلى كل صراط تقديره توعدون من أمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم ودلالة على عظم ما يصدون عنه، وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مرّ بهم: أن شعيباً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين ﴿وتبغونها عوجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصنّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكمًا بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأن طريق الحق لا يعوج ﴿وانكروا إذ كنتم قليلاً﴾ إذ مفعول به غير ظرف، أي: وانكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عندكم ﴿فكشركم﴾ الله ووفر عندكم قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وقشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكشركم فجعلكم أكثرين موسرين، أو كنتم أقله أنلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عاقبة المفسين﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفة.

وإن كان طابقتكم آمنوا بالذي أرسلت به وطابقتهم لئلا يؤمروا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿٨٧﴾ قال النكلا الذين استكبروا من قومهم لنخرجك بشيئنا الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ميثنا قال أولو كنا كرهين ﴿٨٨﴾ قد اقتربنا على الله كذباً إن عدنا في بليئكم بمد إذ نحننا الله ونها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسيع ربنا كل شئو علماً على الله نوكلاً ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير التبين ﴿٨٩﴾.

﴿فاصبروا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم كقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ (4) وهو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الحيف. أي: ليكون أحد الأمرين إما إخراجكم وإما عوبكم في الكفر.

عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرغ خاصة حين وعده أن تكون له الدرغ من أولادها، ووقوع عصي أمم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات لشعيب.

فإن قُلْتُمْ: كيف قيل ﴿الكيل والميزان﴾ وهلا قيل المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام؛ قُلْتُمْ: أريد بالكيل آلة الكيل وهو: المكيال أو سمي: ما يكال به بالكيل، كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسنها حمقاء وهي باخس، وقيل: ﴿أشياءهم﴾ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبيعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرميين، وروي بأنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف، فقطعوها قطعاً ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بليلها زيوفاً. ﴿بعد إصلاحها﴾ بعد الإصلاح فيها أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ (1) بمعنى: بل مكرهم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿نلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحدثه وما تتطلبونه من التكسب والتربح؛ لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي نلكم خير لكم.

ولا تقعدوا بكل صراط ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: ﴿لا تقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (2) فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين، والدليل على أن المراد بالصراط: سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغيتها عوجاً.

فإن قُلْتُمْ: صراط الحق واحد ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (3) فكيف قيل بكل صراط قُلْتُمْ: صراط الحق واحد

(3) سورة الأنعام، الآية: 153.

(1) سورة سبأ، الآية: 33.

(4) سورة التوبة، الآية: 52.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

يكون لنا وما ينبغي لنا وما يصح لنا ﴿ربنا افتح بيننا﴾ احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا ﴿وبين قومنا﴾ وينكشف بأن تنزل عليهم عداباً يتبين معه أنهم على الباطل ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ كقوله: ﴿وهو خير الحاكمين﴾<sup>(4)</sup>.

فإن قُلْتُ: كيف أسلوب قوله: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾؟ قُلْتُ: هو إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب كأنهم قالوا: أكلبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأن الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أن الله ندأ ولا ند له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، والثاني: أن يكون قسمًا على تقدير حذف اللام بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

وَقَالَ الْكَلْبُ الْبَرِّ كَرُّوا مِنْ قَوْمِهِ لَيْنِ أَيْمَنَّمْ شَيْبًا إِنَّكَ إِذَا لَخَيْرُونَ  
فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا<sup>(5)</sup>.

﴿وقال الملا الذين كفروا من قومه﴾ أي: أشرفهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾<sup>(5)</sup> وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قُلْتُ: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن اتبعتم شعيباً﴾ وجواب الشرط؟ قُلْتُ: قوله: ﴿إنكم إذا

فإن قُلْتُ<sup>(1)</sup>: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قوله ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾؟ وكيف أجابهم بقوله ﴿إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟ قُلْتُ: لما قالوا لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك فعضفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عاتدين جميعاً إجراء للكلام على حكم التقلب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراء لكلامه على حكم التقلب.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ والله<sup>(2)</sup> تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قُلْتُ: معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الاطراف لعلهم أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، واللليل عليه قوله: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عبادته كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلب وكيف تقسو بعد الرقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوقفنا لا زياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾<sup>(3)</sup> حسماً لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿أولو كنا كارهين﴾ الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال تقديره: أتعيبوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين، وما

= بالهدى ﴿وهو: من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذا الموضع تحقيق التمكن، والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرغ على القاعدة الفاسدة في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح، والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية، هو المعول عليه لا يجوز تأويله ولا تبنيه، وأما الاستدلال الزمخشري على صحة تأويله، بقوله: وسع ربنا كل شيء علماً، فمن احتيالاته في التاويلات الباطلة بعضها ويتبع التشبه، ويلفقه وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علماً، الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع العبد ولو وقع فبقدرته الله ومشيبته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة، والإيمان السليم، والله العوفق، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء، علماً لما رد الأمر إلى المشيئة، وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وهذا من الطراز الأول، فالحقه به وسحقاً سحقاً.

(4) سورة الاعراف، الآية: 87.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

(1) قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك، أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار، وحينئذ يجوز أن يكون أحياناً لكان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو: الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل صار، وكانهم قالوا والله أعلم: لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريبتنا، أو لتصيرن كقاراً مثلنا، وحينئذ يذعن السؤال أو يسلم استعمال العود، بمعنى: الرجوع إلى أمر سابق، ويجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً، فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعمل أن المؤمن الناشئ في الإيمان، لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراه، فعبّر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عن الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له، وبالطبع به، وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة

وقال:

ولكننا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم  
﴿وقالوا قد مس آياتنا الضراء والسراء﴾ يعني:  
أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في  
الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك، وما  
هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات  
والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب ﴿فاخذناهم﴾ أشد  
الأخذ وأفظعه وهو: أخذهم فجأة من غير شعور منهم.  
اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله:  
﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ (2) كانه قال: ولو أن أهل  
تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّخِذُوا الْحَسَنَاتِ لِأَنَّ السَّيِّئَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ  
أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقْمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ  
أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سَهِيًّا وَهُمْ يَكْمُرُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ  
اللَّهِ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿أمنوا﴾ بدل كفرهم ﴿وأتقوا﴾ المعاصي مكان  
ارتكابها ﴿لأفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾  
لأتيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات  
﴿ولكن كذبوا فاخذناهم﴾ بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون  
اللام في القرى للجنس.

فإن قلنت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلنت: تيسيرها  
عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه  
قولهم: فتحت على القارىء إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها  
عليه بالتلقين. البيات يكون بمعنى: البيوت، يقال: بات بيأتاً  
ومنه قوله تعالى: ﴿فجاءها بأسنا بيأتاً أو هم قائلون﴾ (3)  
وقد يكون بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم يقال:  
بيتته العدو بيأتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو  
وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، أو يكون بمعنى: تبييتاً، كانه  
قيل: أن بيتهم بأسنا بيأتاً وضحى﴾ نصب على الظرف  
يقال: أتانا ضحى وضحياً وضحاء، والضحى في الأصل:  
اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.

والفاء والواو في أمان أو أمن حرفاً عطف دخلت  
عليهما همزة الإنكار.

فإن قلنت: ما المعطوف عليه ولم عطف الأولى بالفاء  
والثانية بالواو؟ قلنت: المعطوف عليه قوله: فاخذناهم بغتة،  
وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ وقع  
اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطف بالفاء؛  
لأن المعنى فعلوا وصنعوا فاخذناهم بغتة أبعد ذلك من  
أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيأتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا  
ضحى. وقرئ: أو أمن على العطف بأو ﴿وهم يلعبون﴾

لخاسرون﴾ ساد مسد الجوابين.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا يَمْنُونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا  
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾

﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ مبتدأ خبره ﴿كان لم يغنوا  
فيها﴾ وكذلك ﴿كانوا هم للخاسرون﴾ وفي هذا الابتداء  
معنى: الاختصاص كانه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم  
المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كان لم يقيموا في  
دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد اتجأهم الله، الذين كذبوا  
شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه  
فإنهم الراجحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير  
مبالغة في رد مقالة الملا لأشباعهم وتسفيه لرايهم  
واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

فَرَأَىٰ عَظْمُهُمْ وَوَالَيْتُ يُرَىٰ لَقَدْ أَهْلَبْتُمْ سِلَاحَكُمْ وَرَبِّي صَوَّحْتُ لَكُمْ  
فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٧﴾

الأسى: شدة الحزن قال العجاج:

وانجلبت عيناه من فرط الأسى  
انتد حزنه على قومه ثم انكر على نفسه فقال: فكيف  
يشد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم  
واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعذرت إليكم  
في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا  
قولي ولم تصدقوني فكيف أسى عليكم؟ يعني: أنه لا بأسى  
عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب:  
كيف إيسي بكسر الهمزة.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِاسِ وَالضَّرِّ  
لَمَّا هُمْ يَضُرُّونَ ﴿١٨﴾

﴿إلا أخذنا أهلها بالباساء﴾ بالبيؤس والفقير  
﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم  
وتعزيمهم عليه ﴿لعلهم يضرعون﴾ ليتضرعوا ويتنلوا  
ويحطوا أربية الكبر والعزة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة  
الحسنة﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء  
والمحنة الرخاء والصحة والسعة كقوله: ﴿وبلوناهم  
بالحسنات والسيئات﴾ (1)

فَمَا بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا  
الضَّرَّ وَالضَّرَّ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾

﴿حتى عموا﴾ كثروا ونموا في انفسهم وأموالهم، من  
قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت، ومنه  
قوله ﷺ: «واعفوا للحى» وقال الحطبية:  
بمستأسد القران عاف نباته

(3) سورة الأعراف، الآية: 4.

(1) سورة الأعراف، الآية: 168.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

**فإن قُلْتُمْ:** فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿فإمامنا مكر الله؟ قُلْتُمْ؟ هو تكرير لقوله: ﴿فإمامن أهل القرى﴾ ومكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولا استدراج، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عبوه الكمين والبيات والغيلة، وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه إن أبك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أن ياتيهم باسنا بيئاتاً﴾.

**أَرَأَيْتَ يَدِي لِلَّذِينَ يُرَوِّتُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَلْ لَا يَسْمُرُونَ ﴿١٣٣﴾**

إذا قرئ: ﴿أولم يهد﴾ بالياء كان ﴿أن لو نشاء﴾ مرفوعاً بأنه فاعله بمعنى: أولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو: إنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكتنا الوارثين كما أهلكتنا المورثين، وإذا قرئ: بالنون فهو منصوب كأنه قيل: أولم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أولم نبين لهم أنا ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

**فإن قُلْتُمْ<sup>(1)</sup>:** بم تعلق قوله تعالى: ﴿ونطبع على قلوبهم؟ قُلْتُمْ؟ فيه أوجه: أن يكون معطوفاً على ما دل عليه معنى ﴿أولم يهد﴾ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على ﴿يرثون الأرض﴾ أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم.

**فإن قُلْتُمْ:** هل يجوز أن يكون ونطبع بمعنى وطبعنا، كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قُلْتُمْ: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقرار الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة وإن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

**يَلِكُ الْفَرَى نَفْصُ عَيْتِكَ مِنْ آبَائِهَا وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِمَّا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِرَبِّ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطِّعُ اللَّهُ عَلَى**

قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٤﴾.

﴿تلك القرى نقص عليك من انبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلي شيخاً﴾<sup>(2)</sup> في أنه مبتدأ وخبر وحال، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً، وأن يكون القرى نقص خبراً بعد خبر.

**فإن قُلْتُمْ:** ما معنى ﴿تلك القرى﴾ حتى يكون كلاماً مفيداً؟ قُلْتُمْ: هو مفيد ولكن بشرط التقيد بالحال، كما يفيد بشرط التقيد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

**فإن قُلْتُمْ:** ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من انبائها؟ قُلْتُمْ: معناه أن تلك القرى المنكورة نقص عليك بعض انبائها ولها انباء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمالهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي وإن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد هو كقوله: ﴿ولو ربنا لعابوا لما نهوا عنه﴾<sup>(3)</sup> ﴿كذلك﴾ مثل تلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَنَشِيقِينَ ﴿١٣٥﴾**

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني: أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى ﴿وإن وجدنا﴾ وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين، والآية اعتراض، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المنكوبين وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومخافة ﴿لئن أنجيتنا.. لنؤمنن﴾<sup>(4)</sup> ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾<sup>(5)</sup> إلى قوله: ﴿إذا هم ينكثون﴾<sup>(6)</sup> والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيداً ذا

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقرار الذنوب، ولا بد إذ الطبع هو التماسي على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة، بل إن الكافر يهدد من تعاديه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هدبتهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً: نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنوب بالإيقاع في نذب أكبر منه، وعلى الكفر =

(2) سورة هود، الآية: 72.

(3) سورة الانعام، الآية: 28.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) سورة الاعراف، الآية: 134.

(6) سورة الاعراف، الآية: 135.

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقرار الذنوب، ولا بد إذ الطبع هو التماسي على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة، بل إن الكافر يهدد من تعاديه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هدبتهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً: نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنوب بالإيقاع في نذب أكبر منه، وعلى الكفر =

الحفاظ، بدليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

**فإن قلت:**

﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ الْقِتْمَانَ﴾ (١٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَرْفَعُونَ إِلَيَّ رَسُولًا مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ فَمَا جِئْتُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ حَاجِّينَ فَإِنِّي قَاتِلٌ إِنَّكُمْ مِنَ الْمُكذِبِينَ ﴿١٦﴾

﴿من بعدهم﴾ الضمير المرسل في قوله ﴿ولقد جاءتهم رسالتهم﴾ (١) أو للام ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لانها من واد واحد ﴿إنَّ الشرك لظلم عظيم﴾ (٢) أو فظلموا الناس بسببها حين أودعهم وصدهم عنها وآثروا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً فلذلك قيل ﴿فظلموا بها﴾ أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان.

ينال لملوك مصر: الفراغنة كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة فكانه قال: يا ملك مصر وكان اسمه: قابوس، وقيل الوليد بن مصعب بن الريان ﴿حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ فيه (٣) أربع قرأت: المشهورة وحقيق علي أن لا أقول وهي: قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي: قراءة عبد الله، وحقيق بان لا أقول وهي: قراءة أبي، وفي المشهورة إشكال ولا تخلو من وجوه أحدها: أن تكون مما بقلب من الكلام لا من الإلباس كقوله:

﴿ثعبان مبین﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعباناً نكراً أشعر فاغراً فاه بين لحييه وثمانون نراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذها وأنا أو من بك وأرسل معي بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

﴿فإن قلت: كيف قال له ﴿فأت بها﴾؟ بعد قوله: إن كنت جئت بآية﴾؟ قلت: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فاتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك.

﴿فَأَلْفَنَّا عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمَرٌ مُنْتَبِهٌ﴾ (١٧) وَرَفَعْنَا يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيضَةٌ لِلنَّظِيرِ ﴿١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا لَسَجْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَأَمَّا تَأْمُرُوكَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَرْمِيهِ وَارْتَمِ فِي الدَّلَائِنِ حٰشِيَةً ﴿٢١﴾ يَا نُوحُ إِنَّا جَاءْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْتَ كَافِرٌ ﴿٢٢﴾ وَرَفَعْنَا فِرْعَوْنَ وَطَافُوتَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْمَغْلِبِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ نَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ ﴿٢٤﴾

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرمح، وحقيق علي أن لا أقول وهي قراءة نافع، والثاني: أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق أي: لازماً له، والثالث: أن يضمن حقيق معنى: حريص كما ضمن هيجني معنى نكرني في بيت الكتاب، والرابع

(1) سورة الأعراف، الآية: 101.  
 (2) سورة لقمان، الآية: 13.  
 (3) قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله:  
 وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر  
 وكقوله:  
 ندرح السر عن كتمان وابتذلت وضع المحاجن بالمهربية النقر  
 فالحقيقة أنَّ الضياطرة تشقى بالرمح، والمهربية تبذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أنَّ الرماح قد تنقص، وتنقص في أجوافهم، فعبر عن ذلك بالشقاء، وأنَّ المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهربية، وربما تمزقت عن ذلك، فجعل ذلك ابتداءً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله:

والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرح بذلك في قوله:  
 طوال الرينيات يقصفها نسي وبيض السريجات يقطعها لحمي  
 الوجه الثاني: قلب معزى عن هذا المعنى البليغ، ولذلك لا يستفصح، كقولهم خرق الثوب المسمار وأشباهه وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نهبت عليه، وأما الوجه الثاني، وهو أنَّ ما لزمك فقد لزمته، ففيه نظر من حيث أنَّ اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه لقول الحق من هذا النمط وأما الوجه الثالث: فلا يلائم بين القرامتين، وقد نكر لها وجه خامس، وهو أن يكون على بمعنى البهاء، ونقل رميت على القوس بمعنى: رميت بالقوس، وهو وجه حسن يلائم، والله أعلم، ويشهده قراءة أبي حقيق بان لا أقول =  
 والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به ولسيوف كما للناس أجال =

وإنكم لمن المقرّبين: أراد إنني لا اقتصر بكم على الثواب وحده وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو: التقريب والتعظيم؛ لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويفتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة، وروي أنه قال لهم: تكونون أوّل من يدخل، وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، واختلفت الروايات فمن مقل ومن أكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون لا تغالب موسى إلا بما هو منه يعني السحر. تخييرهم إياه أب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا للصراع.

قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خَيْرًا لِّمَنْ تُلَىٰ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَفَلَا لَقُوا أَفَلَا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَاهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

وقولهم: ﴿وإمّا أن تكون نحن الملقين﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإحكام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراءبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصده من التأييد السماوي وأنّ المعجزة لمن يغلبها سحر أبداً ﴿سحروا أعين الناس﴾ أروها<sup>(1)</sup> بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه كقوله تعالى: ﴿يخيل إليه ن سحروهم أنها تسعى﴾<sup>(2)</sup> روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طويلاً فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وربك بعضها بعضاً ﴿واستهويهم﴾ وأرهبهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿يسحر عظيم﴾ في باب السحر. روي أنهم لونا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيهم ما يوم الحركة قيل: جعلوا فيها الزئبق.

﴿وَأَرْجَأَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ آتَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾<sup>(١١٧)</sup>

﴿ما يافكون﴾ ما موصولة أو مصدرية بمعنى: ما يافكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوورونه، أو

فإن قلت: بم يتعلق ﴿للمناظرين﴾؟ قلت: يتعلق ببيضاء والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروي أنه أرى فرعون يده وقال: وما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والأدم أبيض.

فإن قلت: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم قلت: قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فنلفته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبليغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم ﴿أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ وقرئ: سحار أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: ﴿فماذا تامرون؟﴾ من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تامرون من كلام فرعون قاله للملأ: لما قالوا له ﴿إن هذا لساحر عليم \* يريد أن يخرجكم﴾ كأنه قيل: فماذا تامرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه معنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرئ: أرجئه بالهمزة وأرجه من أرجاه وأرجاه.

فإن قلت: هلا قيل وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قلت: هو على تقدير سائل سال ما قالوا إذ جاءه؟ فأجيب بقوله ﴿قالوا أئن لنا لأجراً﴾ أي: جعلنا على الغلبة، وقرئ: إن لنا لأجراً على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتكثير للتعظيم كقول العرب: إن له لإبلاً وإن له لغنماً يقصدون الكثرة.

فإن قلت: ﴿وإنكم لمن المقرّبين﴾ ما الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سد مسدّه حرف الإيجاب كأنه قال إيجاباً لقولهم ﴿إن لنا لأجراً﴾ نعم إن لكم لأجراً،

(1) التصريح بالدفاع، وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس، عما في نفوس، فيسميه شعوة وحيلة، وبالقطع يعلم أنّ الشعوة والحيلة لا تعلم في يد ابن عمر رضي الله عنه، حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر، حتى يخيل إليها أنه يأتي نساءه، وهو لا يأتيهن، وقد ورد ذلك وأمثاله مستقيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع، فيقدرة الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء، والله الموفق.

(2) سورة طه، الآية: 66.

(1) قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها لظواهر على ما هي عليه؛ لأنّ العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستنق، فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر، ما يستأثر الإقتدار عليه، وذلك واقع بقدرته الله تعالى عند إرشاد الساحر هذا، هو الحق، والمعتقد الصديق، وإنما أجريت هذا الفصل؛ لأنّ كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أنّ هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنّا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ومنه قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

﴿أفرغ علينا صبراً﴾ هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنباً ثم يقول: قد مازحتك أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يظهرنا من أضرار الآثام وهو الصبر على ما توعنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ الْكَلْبُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُجِئُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُّكَ وَيَأْهَتِكَ قَالَ سَنَقِيلُ آيَاتَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤدياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته فكانته تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجب بالفاء نحو قول الحطيئة:

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء والنصب بإضمار أن تقديره أكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك، وقرئ: ويذرك وآلهتك بالرفع عطفاً على أتذر موسى بمعنى أتذره وأبذرك يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفاً، أو حالاً على معنى: أتذره وهو يذرك وآلهتك، وقرأ الحسن: ويذرك بالجرم كأنه قيل يفسدوا، كما قرئ: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(1)</sup> كأنه قيل أصدق، وقرأ: أنس رضي الله عنه: ونذرك بالنون والنصب أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرها، وقرئ: ويذرك وإلهتك أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقريباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾<sup>(2)</sup> ولنلك قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾<sup>(3)</sup> ﴿سننقتل أبناءهم﴾ يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ليعلموا أننا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخير المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيضطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وأنه منتظر بعد.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعْيِبُوا اللَّهَ وَأَسْرِبُوا إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ

إفكهم تسمية للمافوك بالافك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعصينا.

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ نُحِيلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَسْتَمُ بِوَيْ قَبْلِ أَنْ ءَأَذَنَ لَكَ إِنْ هَذَا لَكُفْرٌ مَكْرُتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمَلُوهُ ﴿١٨٣﴾ لَأَطِيعُنَّ أَيِّدِيكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٤﴾

﴿فوقع الحق﴾ فصل وثبت، ومن بدع التفاسير فوق قلوبهم أي: فائز فيها من قولهم: فاس وقبح ووانقلبوا صاغرين﴾ وصاروا أذلاء مبهوتين ﴿والقي السحرة﴾ وخرروا سجدًا كأنما القاهم ملق لشدة خروهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكانهم القوا. عن قتادة: كانوا أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهادة ببرة وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بنلوا أنفسهم لله.

﴿منتم به﴾ على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخاً لهم وتقريعاً، وقرئ: أمنتهم بحرف الاستفهام ومعناه: الإنكار والاستبعاد ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أن صنعكم هذه الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد توأطتم على ذلك لغرض لكم، وهو: أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبت، قال: لأتئين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتني لأؤمنن بك، وفرعون يسمع فلذلك قال ما قال ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله ﴿لاقطعن﴾ وقرئ: لاقطعن بالتخفيف وكذلك ثم لأصلبكنم ﴿من خلاف﴾ من كل شق طرفاً. وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

قَالَ آءَأِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿إننا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه أن يريدوا إننا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقاءك، أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب، وإننا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا، أو أنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه.

وَدَّ نَبِيْعٌ مِيًّا ءَأَلَّا أَنْتَ ءَأَمَّا يَأْتِي رَبَّنَا لَنَا جَاهَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٨٦﴾

(3) سورة النازعات، الآية: 24.

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) سورة الزمر، الآية: 3.

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمَغِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾.

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك حين قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾<sup>(1)</sup> فجزعوا منه وتضجروا يسكنهم ويسليهم ويعدمهم النصره عليهم وينكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قلت: لم أخلت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة وأما ﴿وقال للملأ﴾ فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾<sup>(2)</sup> وقوله: ﴿إن الأرض لله﴾ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة كقوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾<sup>(3)</sup> وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر: لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس وغرضه أن يتناوله تناولاً أولياً ﴿والعاقبة للمتقين﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأوا: العاقبة للمتقين بالنصب، أبي وابن مسعود عطفًا على الأرض.

قَالُوا أُوذِيَنا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَّا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدَّتْكُمْ وَيَنْتَظِرُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾.

﴿أونينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾

يعنون: قتل آبائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبيء وأعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعيدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فلينظر كيف تعملون﴾ فيري الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد رحمه الله: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائتته رغيغ أو رغيغان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استخلف فنكر له ذلك وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسَيْتِ وَيَقْسِي مِنَ الثَّمَرَاتِ لَأَهْلِهِمْ يُدَكَّرُونَ ﴿١٨٠﴾.

﴿بالسنين﴾ بسني القحط، والسنة من الأسماء الغالبة، كالدابة، والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أخطوا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون، فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة ﴿لعلهم يذكرون﴾<sup>(4)</sup> فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله؛ ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدودًا والين أعطافًا وأرق أفتدة، وقيل: عاش فرعون أربعائة سنة ولم ير مكروهًا في ثلاثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية<sup>(5)</sup>.

إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْ سَيِّئَةً يَبْغُضُوا يَوْمَئِذٍ وَمَنْ مَعَهُ آيَاتِنَا ظَلَمُوا عَنْهُمْ لَا يَمَسُّونَ لَكَ مِنْهَا شَيْئًا ﴿١٨١﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجبل للفرس ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ من ضيقة وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ يطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ﷺ: هذه من عندك.

فإن قلت: كيف قيل؟ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ بيان وتنكير السيئة قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرتهم واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: قد عدت أيام البلاء فهل عدت أيام الرخاء ﴿طائرهم عند الله﴾ أي: سبب خيرهم وشهرهم عند الله، وهو حكمه ومشيتته والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾<sup>(6)</sup> ويجوز أن يكون معناه إلا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿النار يعرضون عليها﴾<sup>(7)</sup> الآية ولا طائر أشام من هذا، وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله وهو اسم لجمع طائر غير تكسيره، ونظيره التجر والركب، وعند أبي الحسن هو: تكسير.

(5) قال أحمد: وقد ورد وإن تصيبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصيبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، فلم يراع فرق ما بينهما، ولعل بين سياق الآيتين اختلافًا أوجب في كل واحد منهما ما نكر فيه.

(6) سورة النساء، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 46.

(1) سورة الاعراف، الآية: 127.

(2) سورة الاعراف، الآية: 109.

(3) سورة الزمر، الآية: 74.

(4) قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة، وأما دعوى اختصاصها بهم، حتى لا يشركهم فيها أحد، فدل عليه تقديم الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر، كالمفعول والخبر ونحوه.

فإن قُلْتُ: كيف سموها آية ثم قالوا: ﴿لتحسرننا بها﴾؟  
قُلْتُ: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتبارًا  
لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَّادِ وَالْوَبْيَةَ مُمْسِكِينَ  
فَأَنْزَلْنَاهُمْ وَأَكَلُوا قَوْمًا تَجْرِبِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿الطوفان﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل،  
قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية  
أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يقدر  
أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء  
حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط  
مشتبكة، فامتلات بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى  
تراقبيهم فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل  
قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من  
الحراث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي  
قلاية: الطوفان الجدي وهو أول عذاب وقع فيهم بقي في  
الأرض، وقيل: هو: الموتان، وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى:  
ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم  
فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلا والزرع ما لم  
يعهد بمثله، فأقاموا شهرًا، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت  
عامّة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب  
وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل  
منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعده التوبة فكشف  
عنهم، بعد سبعة أيام، خرج موسى عليه السلام إلى

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَعْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿مهما﴾<sup>(١)</sup> هي ما المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها  
ما المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى تخرج أخرج  
﴿إينما تكونوا يدركم الموت﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فإما نذهبن بك﴾<sup>(٣)</sup> إلا  
أن الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين وهو  
المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم: أن ما هي  
الصوت الذي يصوت به الكاف، وما للجزاء، كأنه قيل: كف  
ما تأتينا به ﴿من آية لتحسرننا بها فما نحن لك  
بمؤمنين﴾.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿مهما﴾؟ قُلْتُ: الرفع بمعنى أيما  
شيء تأتينا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحسرننا تأتينا  
به، ومن آية تبين لمهما والضميران في به وبها راجعان إلى  
مهما إلا أن أحدهما: ذكر على اللفظ، والثاني: أنت على  
المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

ومهم يكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم  
وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له  
في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما  
بمعنى: متى ما ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من  
وضعه وليس من كلام وأصح العربية في شيء، ثم يذهب  
فيفسر ﴿مهما تأتينا به من آية﴾ بمعنى: الوقت فيلحد في  
آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين  
يدي الناظر في كتاب سيبويه.

= بشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه  
إلى غيره، وأظهر ما قوى به مذهب الخليل، والله أعلم أن هذه  
الكلمة استعملت في الاستفهام، حسب استعمالها في الجزاء  
وأنشدوا:

مهما لي الليلة مهما لي أودى بنعلي وسرباليه  
أراد: ما لي الليلة ولا إشكال ههنا، أنها ما الاستفهامية كررت  
تأكيداً كما يقولون لا لا ونعم نعم ثم استكره تكرار اللفظ بعينه،  
فقلبت ألف الأولى هاء، وقد جاء قلب الاستفهامية، وإن لم يكن  
تكرار، فهو مع أجدر، وإذا وضع أن مهما الواقعة في الاستفهام  
أصلها، ما مكررة كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في  
الجزاء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله  
أعلم، وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى: متى ما فرد  
صحيح، والآية أصدق شاهد على رده، فإن الضمير المجرور  
فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله من آية  
دل على أن الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع مهما عليها  
ضرورة اتحاد المرجع في الضمير، ومظهره، فذهاب هذا القائل  
إلى إيقاع مهما على الوقت زاعماً، أنها بمعنى: متى ما ذهب عن  
الصراب وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله،  
وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه، فتأمل هذا  
الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للقليل، والله الموفق.

(2) سورة النساء، الآية: 78.

(3) سورة الزخرف، الآية: 41.

(1) نال أحمد: والذي عدّه أولاً من كلام سيبويه، وسنذكره قال  
سيبويه وسألت الخليل عن مهما، فقال هي ما أدخلت معها ما  
بغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت متى ما تأتي حدثت أنتهى  
كلام سيبويه وكان هذا القائل، والله أعلم اغترّ بتشبيه الخليل لها  
ببتي ما فظنها في معناها، وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما  
في لحاقها زائدة، مؤكدة للأولى، بما اللاحقة لمتى عاد كلام  
سيبويه، قال: ولكنهم استبحوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء  
من الألف، التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل، قال سيبويه:  
ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد:  
ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما، أن الجزاء بجملته الكلمة، لا  
بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل، والذي  
يحقق ذلك أن سيبويه قال: أول هذا الباب، وأما حيث، وإن فلا  
يجازي بهما، حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما،  
وكانما وليست ما فيهما بلغوا، ولكن كل واحدة منهما مع ما  
بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله وليست ما فيهما بلغو يعني:  
ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء، حتى لا  
يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة، ويبقى وراء ذلك نظر في أن  
سيبويه هل أراد أن ما ضمت إلى ما التي هي الصوت، أو إلى  
ما الجزائية، والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت؛ لأنها  
لو كانت منضمة إلى الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل  
انضمام ما إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث ولا يكون تنظير  
سيبويه مطابقاً، وهذا الذي فهمه ابن طاهر، وتبعه فيه تلميذه  
ابن خروف وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد  
قول ابن بشاذ، أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن

أم ينكثون إلزامًا للحجة عليهم.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَا عَهْدَ  
عِنْدَكَ لَئِن كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٦﴾.

﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية والمعنى: بعهدك، وهو: النبوة، والباء إما أن تتعلق بقوله ﴿ادع لنا ربك﴾ على وجهين أحدهما: أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهد عندك. وإما أن يكون: قسمًا مجابًا بلنؤمنن أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك.

لَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِذْ أَجَلِي هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ  
﴿١٣٦﴾ فَأَنْفَقْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا  
عَنَّا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإهمال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إذا هم ينكثون﴾ جواب لما يعني ﴿فلما كشفناه عنهم﴾ فأجازوا النكث وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكثوا ﴿فانتقمنا منهم﴾ فأرنا الانتقام منهم ﴿فاغرقناهم﴾ اليم: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأن المستنفعين به يقصونه ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

وَأَرْسَلْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْتَبُونَ مَكَرَكِ الْأَرْضِ وَنَكَرِيهَا  
الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكَتَمَتْ رِبِّكَ الْخَسْبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَا  
صَبْرًا وَدَمْرًا مَا كَانَتْ يَصْغُرُ رِعْوَتُ وَوَقُومُهُ وَمَا كَانُوا  
بِمَرْشُورٍ ﴿١٣٧﴾.

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم: بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية ﴿باركنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كلمت ربك الحسنی﴾ قوله: ﴿ونزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾<sup>(1)</sup> إلى قوله: ﴿بما كانوا يحذرون﴾<sup>(2)</sup> والحسن تانيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تمت على الأمر إذا مضى عليه ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر ودالًا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر

الفضاء فاشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهرًا، فسلط الله عليهم القمل وهو: الحمنان، في قول أبي عبيدة: كبار القردان، وقيل: الدبا وهو: أولاد الجراد قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان ياكل أحدهم طعامًا فيمتلئ قملًا، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيرًا، وعن سعيد بن جبير: أنه كان إلى جنبهم كتيب أعفر فضربه موسى بعصاه فصار قملًا، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجبري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا نصنقك أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلات منها أنبيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيء من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقذف بانفسها في القبور وهي تغلي وفي التناير وهي تفور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماء، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في في فيصير الماء في فيها دماء، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحًا أجاجًا، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماء، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي: أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، روي أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب إن عبيدك هذا قد علا في الأرض فخذ بعقوبة تجعلها له ولقومه نعمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد القمل المعروف ﴿آيات مفصلات﴾ نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبيّنات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونعمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم

(2) سورة القصص، الآية: 6.

(1) سورة القصص، الآية: 5.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمر مكسر ما هم فيه من قولهم: إناء متبر إذا كان فضاضاً، ويقال لكسار الذهب: التبر أي: يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه، ويتركها رضاضاً ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقريباً إلى الله كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾<sup>(4)</sup> وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن وتقديم خير المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

قَالَ آخِرُ اللَّهِ أَنِّي كُفِّرُ لَهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿أغبر الله أبغيفكم إليها﴾ أغبر المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً وهو فعل بكم ما فعل دون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم لتختصه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله.

رَأَى أَنَّمَا يُعْبَدُونَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْفُرُونَ سِوَى الْمَلَأِ بِمَنْ يَكْفُرُونَ  
أَنبَاءَكُمْ وَسَجَّوْنَ إِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ييغونكم شدة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَحَلُّ يَسُومُونَكُمْ؟ قُلْتُمْ: هُوَ اسْتِنْفَانٌ لَّا مَحَلَّ لَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الْمَخَاطِبِينَ، أَوْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿وَنَلْكُمْ﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. وللبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

﴿وَأَعَدْنَا مُوسَىٰ نُفُوسَ ثُلَاثِكَ لَيْلَةٍ وَأَتَمَمْنَا بِمَشْرِقِ نَوْمِ مِيقَاتِ رَبِّيهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَقِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(5)</sup>.

وروي أنَّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم آتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فامرهم بصوم ثلاثين يوماً وهو: شهر ذي القعدة، فلما أتت الثلاثين أنكر خلوفاً فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوفاً فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فامرهم الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك، وقيل: أمره الله أن

وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، عن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله: وتلا الآية ومعنى خف: طاش جزعاً وقلة صبر ولم يزن رزاة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسنى ونظيره ﴿من آيات ربه الكبرى﴾<sup>(1)</sup> ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ ما كانوا يعملون ويسبون من العمارات وبناء القصور ﴿ما كانوا يعرشون﴾ من الجنات ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾<sup>(2)</sup> أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وقرئ: يعرشون بالكسر والضم، ونكر اليزيدي أن الكسر أفصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يفرسون من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

وهذا آخر ما اختص الله من نبا فرعون والقبض وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبا بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده ومعابنتهم الآيات العظام ومجازتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلم كفار جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾<sup>(3)</sup> وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله تعالى.

وَجَوْرْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَى أَصْنَابٍ لَهُمْ سَائِلُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿جاتوا على قوم﴾ فمروا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلزمونها. قال ابن جريير: كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل، وقيل: كانوا قوماً من لخم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم. وقرئ: وجورنا بمعنى: أجزنا يقال: أجاز المكان وجورته وجاوزه بمعنى: جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه، وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرهما ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها، وما كافة للكاف ولذالك وقعت الجملة بعدها، وعن علي رضي الله عنه: أن يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه، فقال: قلت اجعل لنا إلهاً قبل أن تجف أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَظِلٌّ مَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٧٩﴾.

(3) سورة سبأ، الآية: 13.

(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

(1) سورة النجم، الآية: 18.

(2) سورة الانعام، الآية: 141.

ليلة وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين ﴿أرني انظر إليك﴾<sup>(2)</sup> ثاني مفعول أرني محذوف، أي: أرني نفسك انظر إليك.

فإن قُلْتَ: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: ﴿أرني انظر إليك﴾؟ قُلْتَ: معنى أرني نفسك اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تنجلي لي فانظر إليك وارك.

فإن قُلْتَ: فكيف قال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل لن تنظر إلي لقلوه: ﴿انظر إليك﴾؟ قُلْتَ: لما قال: أرني بمعنى: اجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل: لن تراني ولم يقل لن تنظر إلي.

فإن قُلْتَ: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعالیه عن الرؤية التي هي: إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأول مكابرتهم وأرتكابهم، وكيف يكون طالبه؟ وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾<sup>(3)</sup> ﴿اتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾<sup>(4)</sup> إلى قوله: ﴿تضل بها من تشاء﴾<sup>(5)</sup> فترا من فعلهم ودعاهم سفهاء

يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقربه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل نكر الأربعين في سورة البقرة وفصلها ههنا و﴿ميقات ربه﴾ ما وقته له من الوقت وضربه له و﴿أربعين ليلة﴾ نصب على الحال أي: تم بالغا هذا العدد و﴿هرون﴾ عطف بيان لأخيه، وقرئ: بالضم على النداء ﴿لخلفني في قومي﴾ كن خليفتي فيهم و﴿واصلح﴾ وكن مصلحاً أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل. ومن دعك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا نطعه.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ بِأَلْ تَرِينِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَيَّ أَلْجَلِيلُ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ سَوَّوْا رَبِّي فَلَمَّا كَمَلُ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا وَحَرَّ مُوسَى صَعْمًا فَلَمَّا آتَا قَالَ سُبْحَانَكَ بِنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحدنا، ومعنى اللام: الاختصاص، فكانه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر و﴿وكلمه ربه﴾<sup>(1)</sup> من غير واسطة كما تكلم الملك، وتكلمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه مخلوطاً في اللوح، وروي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يوماً وأربعين

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة، فامر وهمي مثله عرض للمعطل، فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال، وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي، لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكنك يرى لا في جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع، ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقد، وما هم حينئذ إلا ممن أنوا موسى، فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيباً، وأما قوله عليه السلام اتهلكنا بما فعل السفهاء منا تريباً من أماعيلهم وتسفياً لهم وتضليلاً لرايهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإن الذي كان الإهلاك بسببه، إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين، ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس، لأنها غير جائزة على الله ولكن؛ لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا، والخبر صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية، فلما سألوا، وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكتيباً للخبر، فمن ثم سفهم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها، حيث قالوا: لن نؤمن لك، حتى نرى الله جهرة، ألا ترى أن قولهم لن نؤمن لك حتى نجر لنا من الأرض ينبوعاً، إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرعوا به، لاقتراحهم على الله، ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى، وعنايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(3) سورة النساء، الآية: 158.

(4) سورة الأعراف، الآية: 155.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

(1) قال أحمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه، أنها سيقت مساق الامتنان على موسى، باصطفاء الله له، وتخصيصه إياه بتكليمه، وكنك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إني اصطفيك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين﴾ فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف، والأصوات في بعض الأجرام، واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان أحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أثر بهذه العزية، وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المنكور من أفضل الأجرام، وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر، وخصوصيتهم أوفر، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه العزية، فلا يجمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى، بلا واسطة بليل عليه من حروف، ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى، وإن لم يكن جسماً، فكنك نجيز أن يسمع كلامه، وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً، والكلام في هذه العقيدة طويل والشروط بطين، وهذه النكتة هي الخاصة، بهذه الآية، والله الموفق.

(2) قال أحمد: ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية؛ لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشير بكفه الغزالة ميهات قد تبين الصبح، لذي عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى، فوظيفة علم الكلام وأخصر وجه في إجابة ذلك، أن الوجود مصحح الرؤية بلليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً، وقد شمل الجواز الجوهر، والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح، فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده،

والنظام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين؟

**فإن قُلْتُ (3):** ما معنى ﴿لن﴾؟ قُلْتُ: تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً والمعنى: أن فعله ينافي حالي كقوله: ﴿لن يخلقوا ذبأباً ولو اجتمعوا له﴾ (4) فقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ (5) نفي للرؤية فيما يستقبل، و﴿لن تراني﴾ تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

**فإن قُلْتُ:** كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصل به على معنى أن النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر، وهو: أن تنظر إلى الجبل الذي يرفج بك ويمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه (6) عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وتخّر الجبال هذا \* أن دعوا للرحمن ولداً﴾ (7) ﴿فإن استقرّ مكانه﴾ (8) كما كان مستقرّاً ثابتاً ذاهباً في جهاته ﴿فسوف تراني﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدك دكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع، الا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب

وضلالاً قُلْتُ: ما كان طلب الرؤية إلا ليبتك هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكروا عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم، وقالوا: لا بد ولن نؤمن لك حتى نرى الله جبهة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله: ﴿لن تراني﴾؛ ليتيقنوا وينزاح عنهم ما خلطهم من الشبهة فلذلك قال: ﴿رب أرني انظر إليك﴾.

**فإن قُلْتُ (1):** فهلا قال أروهم ينظروا إليك؟ قُلْتُ: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أراوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما اسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى: ﴿أرني انظر إليك﴾؛ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار؛ ولأن الرسول إمام أمته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم، وقوله (2): ﴿انظر إليك﴾ وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد

= كقوله تعالى: ﴿قل لن تخرجوا معي أبداً، فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، ولن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ لن تتبعونا، فهذه كلها جازئات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(4) سورة الحج، الآية: 73.

(5) سورة الانعام، الآية: 103.

(6) قال احمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري، كنسبة الولد إليه، وهذا مفرغ على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة، إلا تتبع الشبه لامتناع تلقفها من كل فج، والحق أن ذلك الجبل إنما كان، لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء، ولا تستقرّ الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء، وهذا هو الماثور عن السلف في هذه الآية، ومعناه: عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إماً؛ لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإماً؛ لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا، وإماً؛ لأنهم كفروا بالافتراح، أو بالمجموع.

(7) سورة مريم، الآيتان: 90 و91.

(8) قال احمد: وهذا من حيل القدرية في حالة الرؤية يقولون، قد علقها الله على شرط محال، وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال، وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم، ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع، ولا العكس وحيث يتوجه دليلاً، لأهل السنة، فنقول استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقنوداً، ونحن نقول مقنود، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده وقولنا اتعد بالآداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(1) قال احمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول، وأقرب شاهد على ربه أنه لو كان طلب الرؤية لهم، حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد، لهذا الغرض؛ لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إماً أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فأخبره إياهم بأن الله تعالى لا يرى، ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود، من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يرد ذاته، على علم بأن ذلك محال، وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام، فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك، فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا، وإن كان جائزاً.

(2) قال احمد: ودعاه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها، وأما تزييه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استجالة الرؤية إليه، فهو غني عنه، وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته، على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام، وأبي الهذيل، والشيخين، فهو نقص عن منصب العليّ وأهل العوام المقلدين، لأهل السنة راجع عند الله على أصحاب البدع، والأهواء، وإن ملؤوا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاةً، فكيف بكلمة الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(3) قال احمد: لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز تأكيده، وأما استنباط الزمخشري من ذلك مناقاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي عقلاً مرهود كثيراً بكثير من الآي، =

عرفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً كأنها إراءة في جلائها بأية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك. ﴿انظر إليك﴾ أعرفك معرفة اضطرار كاني انظر إليك كما جاء في الحديث: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»<sup>(3)</sup> بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلا واستوى. قال: ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتل قوتك تلك الآية المضطرة، ولكن انظر إلى الجبل فإني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعض فسوف تثبت لها وتطيقها، ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته ﴿جعله دكا وخر موسى صعقاً﴾ لعظم ما رأى، فلما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ مما اقتدرت وتجاسرت ﴿وانا أول المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اسْمَلَيْتُكَ عَلَىٰ أَن نَّاسٍ بِرِسَالَتِي وَبِكَ لِي مَآءَاتِيكَ وَكَانَ الشُّكْرِيْنَ ﴿٧٤﴾

﴿اصطفيتك على الناس﴾ اخترتك على أهل زمانك أشرت عليهم ﴿برسالاتي﴾ وهي أسفار التوراة ﴿وبكلامي﴾ وبتكلمي إياك ﴿فخذ ما أتيتك﴾ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خر موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿اصطفيتك على الناس﴾ وكان هرون مصطفي مثله ونبياً؛ قلت: أجل، لكنه كان تابعاً له ورداً ووزيراً، والكليم هو: موسى عليه السلام والأصيل في حمل الرسالة.

وَكَبَّتْنَا لَهُ فِي الْأَوَّلِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَنُصِيحَةً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمُوسَىٰ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخْلَافِهَا بِأَحْسَبِهَا سَأَوْرِكُ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٥﴾

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة، ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، وشاعره، والمنافع عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المنقلبين بالعلوية، وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن نناصح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد الله ما لن يخلفه وتلقبو عدلية قلنا أجل علوا برهبهم فحسبوه سفه وتلقبو الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شف

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير في سورة ق، باب: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» (الحديث رقم: 4851)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» (الحديث رقم: 1432).

النظر على الشريطة في وجود الرؤية أعني قوله: ﴿فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿جعله دكا﴾ أي: مذكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والدك والذق أخوان كالشك والشق، وقرئ: دكاً والدكاء اسم للرابية الناشرة من الأرض كالذكة، أو أرضاً دكاء مستوية ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنم، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: أبسط يدك دكاء أي: مدّها مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: دكاً أي: قطعاً دكاً جمع دكاء ﴿وخر موسى صعقاً﴾<sup>(1)</sup> من هول ما رأى، وصعق من باب فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق وأصله من الصاعقة، ويقال لها: الصاعقة من صععه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خر مغشياً عليه غشية كالموت، وروي: أن الملائكة مرّت عليه وهو مغشى عليه ففعلوا بلكونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته ﴿قال سبحانك﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿تبت إليك﴾ من طلب الرؤية ﴿وانا أول المؤمنين﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قلت<sup>(2)</sup>: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي نكرته فمم تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرفج الجبل بطالبيها وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبى ربه ملتجئاً إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال: ﴿انا أول المؤمنين﴾ ثم تعجب من المتمسكين بالإسلام<sup>(3)</sup>، المتمسكين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يغرنك تسترهم باللكفة فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموها هم سنة وجماعة حمرا لعمري موكفه قد شبهوه بخلفه وتخوفوا شنع الوري فتستروا باللكفه وتفسير آخر وهو: أن يريد بقوله: ﴿أرني انظر إليك﴾

(1) قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية، فيتخذها عنواً وظهراً على المعتقد الفاسد، والوجه التورك بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله، بالوكز بالرجل، والغصم في الخطاب.

(2) قال أحمد: أمّا دك الجبل، فقد سلف الكلام على سره، وأمّا تسبيح موسى عليه السلام، فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن قوع خلاف معلومه، وعن الحلف في خبره الحق، وقوله الصنق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبى الله، وقدم علمه وخبره عن الخلف، وأمّا التوبة في حق الأنبياء، فلا تستلزم كونها عن ذنب؛ لأنّ منصبهم الجليل، ينبغي أن يكون منزهاً مبرأً من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن، كان أكمل، وقد ورد سيئات المقرّبين حسنات الأبرار.

﴿سأصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: نكر لنا عن رسول الله ﷺ: «إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي»<sup>(4)</sup> وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل، ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم، وفيه إنذارًا للمخاطبين من عاقبة الذين يصرّفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى: يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كل آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشد والرشد والرشاد كقولهم السقم والسقم والسقام، وما أسفه من ركب المفازة فإن رأى طريقاً مستقيماً عرض عنه وتركه، وإن رأى معسفاً مريباً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو تلك في دينه أسفه ﴿تلك﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى تلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِكَأَنَّ الْأَخْرَةَ حَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مِثْقَالَ مِثْقَالٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا لَمْ يَحْوَ أَلَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُجِيبُهُمْ سَبِيلًا أَخَذَهُمْ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿ولقاء الأخره﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي: ولقائهم الأخره ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: لقاء ما وعد الله في الأخره ﴿من بعده﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قلّت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلًا والمتخذ هو السامري؟ قلّت: فيه وجهان أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذهم راضين به فكانهم أجمعوا عليه، والثاني: أن يراد واتخذوه إليها وعبدوه. وقرئ: من حليهم بضم الحاء والتشديد جمع حلى كثدي، وثندي، ومن حليهم بالكسر للاتباع ككلي، ومن حليهم على التوحيد، والحلي اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

نكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطلوها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء ويقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينهاله فقطعها بيده وشققها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كتبنا و ﴿موعظة﴾ وتفصيلاً بدل منه، والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي: سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعفوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها عطفًا على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فخذ ما آتيتك﴾<sup>(1)</sup> والضمير في خذها للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء أو للرسالات أو للتوراة ومعنى: ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿ياخذوا بأحسنها﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاتصاف، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾<sup>(2)</sup> وقيل: ياخذوا بما هو واجب أو ننب؛ لأنه أحسن من المباح ويجوز أن يراد: ياخذوا بما أمروا به نون ما نهوا عنه على قولك: الصيف حرّ من الشتاء ﴿ساريكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي: مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكم الله لفسقهم في ممزك عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم، وقرأ الحسن: ساوريكم وهي: لغة فاشية بالحجاز يقال: أورني كذا، وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند كان المعنى بينه لي وأنره لأستبينه، وقرئ: ساورثكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾<sup>(3)</sup>.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مَائِدَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾

(4) قال الزيلعي: لم أجده، عن الفضيل بن عياض، وأخرجه الحكيم

الترمذي في نوارس الأصول 1/473.

(1) سورة الاعراف، الآية: 144.

(2) سورة الزمر، الآية: 55.

(3) سورة الاعراف، الآية: 137.

جَمَعَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿خلفتهموني﴾ قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشباعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم: هرون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخلفني في قومي﴾ (5) والمعنى: بشس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قُلْت: أين ما تقتضيه بشس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قُلْت: الفاعل مضمَر يفسره ما خلفتموني والمخصوص بالذم محذوف تقديره بشس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قُلْت: أي معنى لقوله: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله: ﴿خلفتهموني﴾؟ قُلْت: معناه من بعد ما رأيتم من توحيد الله ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾ (6) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه ونحوه: ﴿خلف من بعدهم خلف﴾ (7) أي:

من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة. يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته فيقال: عجلت الأمر والمعنى: أعجلت عن أمر ربكم وهو: انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ (8) إن موسى لن يرجع وأنه قد مات، وروي أنهم عدوا عشرين يومًا بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا ﴿وألقي الألواح﴾ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل غضبًا لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديدًا شديد الغضب، وكان هارون الين منه جانبًا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي: أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقي الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿وتلخذ برأس لحيه﴾ أي: بشعر رأسه ﴿يجره إليه﴾ بنؤابته وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزده وذهب ببطنته وظنًا باخيه أنه فرط في الكف ﴿ابن أم﴾ قرئ: بالفتح تشبيهًا بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، وابن أمي بالياء، وابن إم بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لآبيه

فإن قُلْت: لم قال: ﴿من حلتهم﴾ ولم يكن الحلي لهم، وإنما كانت عواربي في أيديهم؟ قُلْت: الإضافة تكون بأبني ملابسة، وكونها عواربي في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا ﴿فاخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم﴾ (1) ﴿كنكك وأورثناها بني إسرائيل﴾ (2) ﴿جسدًا﴾ بدنا ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار صوت البقر. قال الحسن: إن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقذفه في العجل، فكان عجلًا له خوار، وقرأ علي رضي الله عنه: جوار بالجيم والهمزة من جار إذا صاح، وانتصاب جسدًا على البدل من عجلًا ﴿علم يروا﴾ حين اتخذوه إلهًا أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مدائنًا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الألبلة وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدأ فقال ﴿واتخذوه﴾ أي: اقدموا على ما اقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وكانوا ظالمين﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم ولا أول مناكيرهم.

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لِنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاشِعِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتهم أن يعرض يده غمًا، فتصير يده مسقوطًا فيها لأن فاه قد وقع فيها، وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية، وقرأ أبو السميعة: سقط في أيديهم على تسمية الفاعل أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج معناه: سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: حصل في يده مكروه وإن كان محالًا أن يكون في اليد تشبيهًا لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبيينًا كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرئ: لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا بالتاء وربنا بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾ (3) الأسف الشديد الغضب ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم﴾ (4) وقيل: هو الحزين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ عَظِيمًا قَالَ إِنَّمَا قَالَ إِنَّمَا خَلَفْتَنِي مِنْ بَدِيءِ أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَمَّا رَأْسُ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوْهُ وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي فَلَا تُخِشْهُمُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَلَا

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 57 و58.

(2) سورة الشعراء، الآية: 59.

(3) سورة الاعراف، الآية: 23.

(4) سورة الزخرف، الآية: 55.

(5) سورة الاعراف، الآية: 142.

(6) سورة الاعراف، الآية: 138.

(7) سورة الاعراف، الآية: 169.

(8) سورة طه، الآية: 88.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي كلها ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ثم رجعوا ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿وَأَمَّنُوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك العظائم ﴿لِغُفُورٍ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رَحِيمٍ﴾ منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم (3) عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم عظم جنايتهم أولاً، ثم أرفها تعظيم رحمة ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهي: وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سَخَطِنَا هُدًى  
رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَتُوبُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿ولما سكوت عن موسى الغضب﴾ (4) هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، والى الألواح، وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم ونوق صحيح إلا لذلك، و؛ لأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة، وقرئ: ولما سكوت وأسكت أي: أسكته الله أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفى غضبه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألقاها ﴿وفي نسختها﴾ وفيما نسخ منها أي كتب والنسخة فعلة بمعنى: مفعول كالخطبة ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً ونحو ﴿لِلرُّؤْيَا يَتِيبُونَ﴾ (5) وتقول لك ضربت.

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا يُحِبُّونَنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتَ أَتَّيَبُوا بِمَا فَعَلْتَ أَسْتَهْجَأُ يَتَاءَ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَاصْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿واختار موسى قومه﴾ أي: من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله:

منا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة

وأمه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد وذلك ادعى إلى العطف والرقعة وأعظم للحق الواجب، و؛ لأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها، و؛ لأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ يعني: أنه لم يأل جهداً في كفههم بالوعظ والإنذار وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضابنتهم حتى قهره واستضعفه ولم يبق إلا أن يقتلوه ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءُ﴾ فلا تفعل بي ما هو أمينتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرئ: فلا يشمت بي الأعداء على نهى الأعداء عن الشماتة، والمراد: أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قريباً لهم وصاحباً، أو ولا تعتقد أنني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاَئِحِي وَآذِنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ ﴿١٤٦﴾

لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء ﴿قال رب اغفر لي ولائحي﴾ ليرضي أخاه ويظهر لاهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولائحيه إن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الِجْرَالَ سِينَنَهُمْ عَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ  
الْأَدْنَى وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿عضب من ربههم ونلة﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم والنلة: خروجهم من ديارهم؛ لأن نال الغربية مثل مضروب، وقيل: وهو: ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن النلة بضر، الجزية ﴿المفتريين﴾ المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري ﴿هذا إليهم وإله موسى﴾ (1) ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالنلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، ونلة في الحياة الدنيا، ووضرت عليهم النلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله (2).

وَأَذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ تُرُّ تَابُوا مِنْ بَيْنِهِمَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ  
بَيْنِهِمَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٧﴾

= المسمار، والتحقيق أنه ليس منه، وإن هذا القلب أشرف، وأفصح؛ لأنه بما له على معنى بليغ، وهو: أن الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به، ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى حقيق على أن لا أقول على الله، إلا الحق على خلاف قراءة نافع، وقد تقدم ذلك آنفاً، والله الموفق.

(5) سورة يوسف، الآية: 43.

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق، وإن مغفرة الذنوب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عند ذلك من الأهواء، والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة غير متنتعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(4) قال أحمد: وهو من النمط الذي قمعته من قلب الحقيقة، إلى المجاز، وكان الأصل، ولما سكوت موسى عن الغضب، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب =

للفاعل والمفعول بمعنى: حرّكنا إليك أنفسنا وأملناها، أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير فعلنا كقولك: عدت يا مريض بكسر العين فعلت من العيادة، ويجوز عدت بالإشمام، وعدت بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون هدنا بالضم فعلنا من هاده يهديه **﴿عذابي﴾** من حاله وصفته إني **﴿أصيب به من إساءة﴾** أي: من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مسامح لكونه مفسدة. وأمّا رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو منقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كنية خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمة محمد ﷺ الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون لا يكفرون بشيء منها.

الَّذِينَ بَدَعُوا الرِّسُولَ الَّتِي الْأَنْبِيَاءُ الَّتِي يَدْعُونَ مَكْرُوبًا  
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَرْوِفِ وَيَتَّبِعُهُمْ عَنِ  
النَّسْكِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الْكَلْبِيَّةَ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيَّةَ وَيَضَعُ  
عَنْهُمْ إِسْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ  
وَعَزَّزُوا وَصَّوْرَهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّتِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ  
الْمُتْلِحُونَ ﴿٧٧﴾.

**﴿الذين يتبعون الرسول﴾** الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو: القرآن **﴿النبوي﴾** صاحب المعجزات **﴿الذي يحدونه﴾** يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل **﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. ويحل لهم الطيبات﴾** ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت **﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾** ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة. الاصر الثقل الذي ياصر صاحبه أي: يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل النفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع التجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرئ: أصارهم: على الجمع **﴿وعزّزوه﴾** ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ، وقرئ: بالتخفيف، وأصل العزّز: المنع،

حتى تتاموا اثنين وسبعين فقال: ليتخلف منكم رجلان فنشاحوا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاخترهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويظهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما بنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله وبننا موسى وبخل فيه وقال للقوم: ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه فعمل ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فاقبلوا إليه فطلبوا الرؤية، فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم فقالوا: **﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾** (1) فقال: **﴿رب أرني انظر إليك﴾** (2) يريد أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة **﴿قال﴾** موسى **﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾** وهذا تمّن منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغيبة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا **﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾** يعني: أتهلكنا جميعاً يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء وهم طلبوها سفهاً وجهلاً **﴿إن هي إلا فتنتك﴾** أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً حتى افتتنوا وضلوا **﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾** تضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدي منه؛ لأنّ محنته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا، فكانه أضلهم بها وهدهم على الاتساع في الكلام **﴿أنت ولينا﴾** مولانا القائم بأمورنا.

﴿وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ النُّبُوءِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا  
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ  
شَيْءٍ فَسَأَلْتَنِي لَئِن بَقِيتُ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا  
يُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾.

**﴿واكتب لنا﴾** وأثبت لنا واقسم **﴿في هذه الدنيا حسنة﴾** عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة **﴿وفي الآخرة﴾** الجنة **﴿هدنا إليك﴾** تبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، واليهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم: ياراكيب السنن همدد وأسجدك أنك همدد وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء من هاده يهديه إذا حرّكه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً

﴿لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تهتدوا.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: فآمنوا بالله وبني بعد قوله: ﴿إني رسول الله إليكم﴾؟ قُلْتُ: عدل عن المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقه الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو: هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري إظهاراً للنصفة وتغانياً من العصبية لنفسه.

وَمِن قَوْمٍ مُّؤْمِنٌ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ هم: المؤمنون الثابتون من بني إسرائيل لما نكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمنتين: عبادة العجل واستجادة رؤية الله تعالى، نكران منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويبلونهم على الاستقامة ويرشونهم. وبالحق يعملون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أترك النبي ﷺ وأمن به من أعقابهم، وقيل: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتدروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا، ونكر عن النبي ﷺ: «إن جبريل ذهب ليلة الإسراء نحوهم فكلهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا؛ قال: هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا من أترك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام، فرد محمد على موسى عليهما السلام السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت»، وعن مسروق قرئ: بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله - يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين - وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً؟ من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشرية ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخبر بشرية محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملا به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

وَوَعَدْنَهُمْ إِنَّا لَآئِسَاتٌ لَّكَ يَا مَعْشَرَ الْفَالِجِيَّةِ وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ بِإِلَهِكَ إِلَّا بِمَا نَرَىٰ مِنْ آيَاتِكَ وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ بِإِلَهِكَ إِلَّا بِمَا نَرَىٰ مِنْ آيَاتِكَ وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ بِإِلَهِكَ إِلَّا بِمَا نَرَىٰ مِنْ آيَاتِكَ

ومنه التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح، ألا ترى إلى تسمية الحد والحد هو المنع و﴿النور﴾ القرآن.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله ﴿أنزل معه﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ قُلْتُ: معناه أنزل مع نبوته؛ لأن استنبأه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فإن قُلْتُ: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قُلْتُ: لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل أوجب بما هو منطوق على توبيخ بني إسرائيل على استجارتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى وعرض بذلك في قوله: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾<sup>(1)</sup> وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وما جاء به، كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وفي أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَسْمِعُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا إِلَهُ الْوَالِدِينَ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٨﴾

﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن و﴿جميعاً﴾ نصب على الحال من إليكم.

فإن قُلْتُ: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ما محله؟ قُلْتُ: الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعني وهو الذي يسمى النصب على المدح، ويجوز أن يكون جزأً على الوصف. وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إليكم جميعاً﴾ وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض وكذلك ﴿يحيي ويميت﴾ وفي لا إله إلا هو بيان للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والاماتة غيره ﴿وكلماته﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه، وقرئ: وكلمته على الأفراد وهي: القرآن أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم، وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: كن، وإنما قيل: إن عيسى كلمه الله فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمني

قُلْتُ: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ وبين قوله: ﴿فَكُلُوا﴾<sup>(2)</sup> لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنائها والكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو آخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما وترك نكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ موعِد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخل بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران فقليل له: سنزيد المحسنين. وكذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فَارْسَلْنَا﴾ وانزلنا و﴿يُظْلَمُونَ﴾ ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطيئاتكم ونغفر لكم خطاياكم وخطيئاتكم وخطيئاتكم على البناء للمفعول.

وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرَ إِذْ يَدُورُ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَاتُهُمْ يَوْمَ سَأْتِيهِمْ شُرَكَاءُ وَيَوْمَ لَا يُسْأَرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ يَلُومُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ<sup>(3)</sup>.

﴿وسلهم﴾ وسل اليهود، وقرئ: واسألهم، وهذا السؤال معناه: التقرير والتقريع بتقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي، ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك أعديتم في السبت. والقرية أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج. يعني: رجلين من أهل المدن ﴿حاضرة البحر﴾ قريبة منه راحة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حد الله فيه وهو: اصطيداهم في يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ: يعدون بمعنى: يعتنون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعنون من الإعداد وكانوا يعتنون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت مصدر، سبتت اليهود إذا عظمت سببها بترك الصيد والاشتغال بالتعب، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه قوله ﴿ويوم لا يسبئون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم أسبأتهم، وقرئ: لا يسبئون بضم الباء، وقرأ علي: لا يسبئون بضم الياء من أسبأوا، وعن الحسن: لا يسبئون على البناء للمفعول أي: لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبأوا.

فإن قُلْتُ: ﴿إذ يعدون﴾ و﴿إذ تاتيهم﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: أما الأول: فمجزور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها كانه قيل: وأسألهم عن أهل القرية وقت عنوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتغال، ويجوز أن يكون منصوباً بكانت أو بحاضرة، وأما الثاني: فمنصوب

الْمَعْمَ وَأَرْزَلْنَا عَلَيْهِمُ النَّارَ وَالسَّلَوَى كَلُوا مِنْ لَيْبَتِي مَا رَزَقْتَكُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ<sup>(4)</sup>.

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعاً أي: فرقاً وميزنا بعضهم من بعض لقلّة الألفة بينهم، وقرئ: وقطعناهم بالتخفيف ﴿اثنتي عشرة أسباطاً﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة؛ والأسباط أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام.

فإن قُلْتُ: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً، وهلا قيل اثني عشر سبطاً؟ قُلْتُ: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً؛ لأن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة ونظيره.

بين رساحي مالك ونهشيل

و﴿أمماً﴾ بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أمماً؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تاتلف. وقرئ: اثنتي عشرة بكسر الشين ﴿فانجست﴾ فانفجرت والمعنى واحد وهو: الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وكيف غربي دالج تبجساً

فإن قُلْتُ: فهلا قيل: فضرِب فانجست؟ قُلْتُ: لعدم الإلباس وليجعل الإنجاس مسبباً على الإيحاء بضرِب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإنصاح به، وقوله ﴿كل أناس﴾ نظير قوله: ﴿اثنتي عشرة أسباطاً﴾<sup>(1)</sup> يريد كل أمة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والأناس اسم جمع غير تكسير نحو رخال وتناء وتوأم وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير والضمّة بدل من الكسرة كما أبيلت في نحو سكارى وغيرارى من الفتحة ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ وجعلنا ظليلاً عليهم في التيه و﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وما ظلمونا﴾ وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم. ولكن كانوا يضررون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ<sup>(5)</sup> فَكَذَّبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْسًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ<sup>(6)</sup>.

﴿وإذ قيل لهم﴾ وانكر إذ قيل لهم: والقرية بيت المقدس.

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت العبارة فهنا وفي سورة البقرة؟

قَوْمًا ﴿ قَالَ عِزْمَةُ فَعَلْتُ: جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفُوهُمْ وَقَالُوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ؟﴾ فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتَهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، وَعَنِ الْحَسَنِ: نَجَتْ فِرْقَتَانِ وَهَلَكَتْ فِرْقَةٌ وَهَمَّ: الَّذِينَ أَخَذُوا الْحَيَاتَانَ، وَرَوَى أَنَّ الْيَهُودَ أَمَرُوا بِالْيَوْمِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ وَهُوَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَتَرَكُوهُ وَاخْتَارُوا يَوْمَ السَّبْتِ، فَابْتَلَوْا بِهِ وَحَرَمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ الصَّيْدَ وَأَمَرُوا بِتَعْظِيمِهِ، فَكَانَتِ الْحَيَاتَانِ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ شَرْعًا بِيضًا سَمَانًا كَأَنَّهَا الْمَخَاضُ لَا يَرَى الْمَاءَ مِنْ كَثْرَتِهَا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ، فَكَانُوا كَذَلِكَ بَرَهَةً مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ جَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّمَا نَهَيْتُمْ عَنْ أَخْذِهَا يَوْمَ السَّبْتِ فَاتَّخَذُوا حَيَاضًا تَسْوِقُونَ الْحَيَاتَانَ إِلَيْهَا يَوْمَ السَّبْتِ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا وَتَأْخُذُونَهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَوْثًا وَرَبَطَ فِي نَتَبِهِ خَيْطًا إِلَى خَشْبَةِ فِي السَّاحِلِ ثُمَّ شَهِدَ يَوْمَ الْأَحَدِ فَوَجَدَ جَارَهُ رِيحَ السَّمَكِ فَتَطَّلَعَ فِي تَنْوَرِهِ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ سَيُعَذِّبُكَ، فَلَمَّا لَمْ يَرِهِ عَذِبَ أَخَذَ فِي السَّبْتِ الْقَابِلِ حَوْتَيْنِ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَعْجَلُهُمْ صَابَرُوا وَآكَلُوا وَمَلَحُوا وَبَاعُوا وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ آفًا، فَصَارَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ آثَلًا ثَلَاثًا ثَلَاثًا نَهَوْا وَكَانُوا نَحْوَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ آفًا، وَثَلَاثَ قَالُوا: لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا، وَثَلَاثَ هُمْ: أَصْحَابُ الْخَطِيئَةِ، فَلَمَّا لَمْ يَنْتَهَوْا قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّا لَا نَسَاكُنُكُمْ فَقَسَمُوا الْقَرْيَةَ بَجِدَارٍ لِلْمُسْلِمِينَ بَابٍ، وَلِلْمَعْتَدِينَ بَابٍ، وَلِعَنَهُمْ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاصْبَحَ النَّاهُونَ نَاتِ يَوْمَ فِي مَجَالِسِهِمْ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْمَعْتَدِينَ أَحَدٌ فَقَالُوا: إِنَّا لِلنَّاسِ شَانَاءُ، فَعَلُوا الْجِدَارَ فَنظَرُوا فَإِذَا هُمْ قَرْدَةٌ، فَفَتَحُوا الْبَابَ وَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ، فَعَرَفَتْ الْقُرُودُ أَنْسَابَهَا مِنَ الْإِنْسِ، وَالْإِنْسُ لَا يَعْرِفُونَ أَنْسَابَهُمْ مِنَ الْقُرُودِ، فَجَعَلَ الْقَرْدُ يَأْتِي نَسَبِيهِ فَيَسْمَعُ ثِيَابَهُ وَيَبْكِي فَيَقُولُ: أَلَيْسَ هَذَا؟ فَيَقُولُ بِرَأْسِهِ: بَلَى، وَقِيلَ: صَارَ الشَّبَابُ قَرْدَةً وَالشَّيْرُخُ حَنَازِيرَ، وَعَنِ الْحَسَنِ: آكَلُوا وَاشْهُوا أَوْخَمَ أَكَلَةً أَكَلَهَا أَهْلُهَا أَثَقَالًا حَزْبًا فِي الدُّنْيَا وَأَطْوَلُهَا عَذَابًا فِي الْآخِرَةِ هَاهُ وَابِمِ اللَّهِ تَأْخُذَهُ قَوْمٌ فَآكَلُوهُ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مَسْدُ اللَّهِ جَعَلَ مَوْعِدًا وَالسَّاعَةَ أَدْمَى وَأَمَرَ

﴿بَيْئِسَ﴾ شَدِيدٌ يَخَالُ: بُوْسٌ بِيُوْسٌ بِأَسْنَا إِذَا اشْتَدَّ فَهُوَ بَيْئِسٌ، وَقُرَى: بَيْئِسٌ بَوْرُنٌ حَذْرٌ، وَبَيْئِسٌ عَلَى تَخْفِيفِ الْعَيْنِ وَنَقَلَ حَرَكَتَهَا إِلَى الْفَاءِ كَمَا يُقَالُ: كَبِدٌ فِي كَبِدٍ وَبَيْئِسٌ عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءُ كَذِيبٍ فِي نَثْبٍ وَبَيْئِسٌ عَلَى فِعْلٍ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحًا، وَبَيْئِسٌ بَوْرُنٌ رَيْسٌ عَلَى قَلْبِ هَمْزَةٍ بِبَيْئِسٍ يَاءُ وَادْغَامِ الْيَاءِ: رَيْبِسٌ عَلَى تَخْفِيفِ بَيْئِسٍ كَهَيْنٍ فِي هَيْنٍ، وَبَيْئِسٌ عَلَى -

بِيعَدُونَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا بَعْدَ بَدَلٍ. وَالْحَيَاتَانِ السَّمَكُ وَكَثُرَ مَا تَسْتَعْمَلُ الْعَرَبُ الْحَوْتِ فِي مَعْنَى السَّمَكَةِ ﴿شَرَعًا﴾ ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَعَنِ الْحَسَنِ: تَشْرَعُ عَلَى أَيْوَابِهِمْ كَأَنَّهَا الْكِبَاشُ الْبَيْضُ يُقَالُ: شَرَعَ عَلَيْنَا فَلَانٌ إِذَا دَنَا مِنَّا وَأَشْرَفَ عَلَيْنَا، وَشَرَعَتْ عَلَى فَلَانٍ فِي بَيْتِهِ قَرَابَتُهُ يَفْعَلُ كَذَا ﴿كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ﴾ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الشَّدِيدِ نَبَلُوهُمْ بِسَبَبِ فَسَقِهِمْ.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَذْمُورَةٌ إِنْ رَيْبُكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَوْ الْأَرَى جَمَلَكُمْ عَنَتِ الْأَرْضُ رَوَّعَ بِمَصْنَعِ قَوْمٍ بَعْضٌ دَرَجَتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا أَنْتُمْ كَارُونَ إِنْ رَيْبُكُمْ سَرِيعَ الْآعَابِ وَإِنَّهُ لَمَقْرُورٌ رَجِيمٌ ﴿١٧٨﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى إِذْ يَعْدُونَ وَحِكْمُهُ حِكْمُهُ فِي الْإِعْرَابِ ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جَمَاعَةٌ مِنَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ مِنْ صَلْحَائِهِمْ الَّذِينَ رَكِبُوا الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ فِي مَوْعِظَتِهِمْ حَتَّى آيَسُوا مِنْ قِيُولِهِمْ لِآخَرِينَ كَانُوا لَا يَقْلَعُونَ عَنْ وَعْظِهِمْ ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ أَي: مَخْتَرْتَهُمْ وَمَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْهُمْ ﴿أَوْ مَعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لِتَمَادِيهِمْ فِي الشَّرِّ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ: لَعَلَّهُمْ أَنْ الْوَعْظَ لَا يَنْفَعُ فِيهِمْ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أَي: مَوْعِظَتُنَا إِبْلَاءٌ عِزْرٌ إِلَى اللَّهِ وَلِثَلَا نَسَبٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَى بَعْضِ التَّفْرِيطِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وَلَطْمَعْنَا فِي أَنْ يَتَّقُوا بَعْضَ الْإِتْقَاءِ. وَقُرَى: مَعْذِرَةٌ بِالنَّصْبِ أَي: وَعْظَانَاهُمْ مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَاعْتَذَرْنَا مَعْذِرَةٌ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْقَرْيَةِ، فَلَمَّا تَرَكُوا مَا نَكَرَهُمْ بِهِ الصَّالِحُونَ تَرَكَ النَّاسِي لِمَا يَنْسَاهُ ﴿أَتَجِدْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا﴾ الظَّالِمِينَ الرَّابِكِينَ لِلْمُنْكَرِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الْأُمَّةُ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ﴾ مِنْ أَيِ الْفَرِيقَيْنِ هُمْ؟ أَمِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ أَمْ الْمَعْدِيينِ قُلْتُمْ: مِنْ فَرِيقِ النَّاجِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ فَرِيقِ النَّاهِينَ وَمَا قَالُوا مَا قَالُوا إِلَّا سَائِلِينَ عَنْ عِلَّةِ الْوَعْظِ وَالغَرَضِ فِيهِ حَيْثُ لَمْ يَرَوْا فِيهِ غَرَضًا صَحِيحًا لَعَلَّهُمْ بِحَالِ الْقَوْمِ، وَإِذَا عَلِمَ النَّاهِي حَالَ الْمُنْهَى وَأَنَّ النَّهْيَ لَا يُوَثِّرُ فِيهِ سَقَطَ عَنْهُ النَّهْيُ وَرَبِمَا وَجِبَ التَّرَكُّ لِنُدْخُولِهِ فِي بَابِ الْعَبْثِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى الْمَكَاسِينِ الْقَاعِيينِ عَلَى الْمَأْصِرِ وَالْجَلَادِيينِ الْمُرْتَبِيينِ لِلتَّعْذِيبِ لَتَعْظَمُوهُمْ وَتَكْفَهُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ كَانُوا عِبْتًا مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَبَبًا لِتَلْهِيهِ بِكَ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّمَا لَمْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِمَّا لِأَنَّهُمْ يَأْسَهُمْ لَمْ يَسْتَحْكَمْ كَمَا اسْتَحْكَمْ يَأْسُ الْأَوَّلِينَ وَلَمْ يَخْبَرُوهُمْ كَمَا خَبَرَهُمْ، أَوْ لَفَرَطُ حَرَصِهِمْ وَجَدَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ﴾ (١) وَقِيلَ: الْأُمَّةُ هُمُ الْمَوْعُظُونَ لَمَّا وَعِظُوا قَالُوا لِلْوَاعِظِيينِ: لِمَ تَعْظُونَ مِنَّا قَوْمًا تَزْعَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مَعْذِبُهُمْ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ بِهِؤَلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا ﴿لِمَ تَعْظُونَ

فَلَمَّا عَزَّأَ عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَمْ نُؤْمَرْ بِرَدِّهِمْ خَسِيئَةٌ ﴿١٧٧﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيَمَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْآزْمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَمَقْرُورٌ رَجِيمٌ ﴿١٧٨﴾.

﴿فَلَمَّا عَزَّأَ عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ﴾ فَلَمَّا تَكَبَّرُوا عَنْ تَرْكِ مَا

ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل سيغفر الجار والمجرور وهو: لنا، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو: مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال أي: يرجون المغفرة وهم مصرون عاتنون إلى مثل فعلهم غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة والمصير لا غفران له ﴿الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ننباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة هو: مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به قالوا: سيغفر لنا لأننا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين نكرهم الله وتلا الآية ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب وألا تقولوا بالتاء، وادارسوا بمعنى: تدارسوا وأفلا تعقلون بلياء والتاء.

فإن قُلْتَ: ما موقع قوله: ﴿إلا يقولوا على الله إلا الحق﴾ قُلْتَ: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى ميثاق الكتاب: الميثاق المذكور في الكتاب وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله وتقول عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان أن لا يقولوا مفعولاً له، ومعناه: لثلا يقولوا، ويجوز أن تكون أن مفسرة ولا تقولوا نهياً كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾؟ قُلْتَ: على ﴿الم يؤخذ عليهم﴾؛ لأنه تقرر، فكانه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

وَالَّذِينَ يَسْكُرُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصَلِّينَ ﴿٧٧﴾.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إننا لا نضيع أجرهم؛ لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب كقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾<sup>(4)</sup> والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ويكون قوله: ﴿إننا لا نضيع﴾ اعتراضاً. وقرئ: يمسكون بالتشديد وتنصره قراءة أبي: والذين مسكوا بالكتاب.

فإن قُلْتَ: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها

نحو عنه كقوله: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾<sup>(1)</sup> ﴿قلنا لهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾<sup>(2)</sup> والمعنى: أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: ﴿فلما عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلما نسوا﴾<sup>(3)</sup> العذاب البئيس هو: المسخ ﴿بتأذن ربك﴾ عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثن﴾ والمعنى: وإن حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤذون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى ليبعثن عليهم ليسلطن عليهم كقوله: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد﴾<sup>(4)</sup>.

وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْماً مِنْهُمْ لِلصَّالِحِينَ وَتَمَّ دَوْلَهُمْ دَوْلَتَهُمْ وَأَلَسْنَا لَكُمْ لَمَمًا يَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿وقطعناهم في الأرض أصماً﴾ وفرقناهم فيها فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم الصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم بون ذلك﴾ ومنهم ناس بون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الكفرة والفسقة.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿بون ذلك﴾؟ قُلْتَ: الرفع هو: صفة لموصوف محذوف معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحو ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾<sup>(5)</sup> يعني: وما منا أحد إلا له مقام ﴿ويولوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعمة والنقم ﴿لعلهم﴾ ينتهون فينبون.

فَخَلَفَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَلْفٌ رَوَّوْا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سِعْءٌ لَنَا وَإِنْ يَا أَيُّهَا عَرَضٌ نِفْلٌ يَأْخُذُهُ أَلَّا يُوَظَّفَ عَلَيْهِمْ يَتَّقُونَ الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ سَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿فخلف﴾ من بعد المنكوبين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤونها ويفقون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولا يعملون بها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا، وما يتمتع به منها وفي قوله: هذا الأدنى تحسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنيا بمعنى: القرب لأنه عاجل قريب، وإما من: دنو الحال وسقوطها وقتها، والمراد:

(1) سورة الاعراف، الآية: 77.

(4) سورة الإسراء، الآية: 5.

(2) سورة يس، الآية: 82.

(5) سورة الصافات، الآية: 164.

(3) سورة الاعراف، الآية: 165.

(6) سورة الكهف، الآية: 30.

﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وأشهادهم على أنفسهم وقوله: ﴿الست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ من باب التمثيل<sup>(3)</sup> والتخيل ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرهم وقال لهم: الست بربكم؟ وكانهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا أقررنا بوجدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾<sup>(4)</sup> ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾<sup>(5)</sup> وقوله:

إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصبأ قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ﴿أن تقولوا﴾ مفعول له أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لم ننبه عليه ﴿أو﴾ كراهة أن تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فاعتدنا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالأباء، كما لا عذر لأبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن قُلْتُ<sup>(6)</sup>: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قُلْتُ: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيزاً ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم واللليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل﴾ واللليل على أنها في اليهود الآيات التي عطف عليها والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾<sup>(7)</sup> ﴿وإذا قالت أمة منهم لم تعظون﴾<sup>(8)</sup> ﴿وإذا تاذن ربك﴾<sup>(9)</sup> ﴿وإذا نتقنا الجبل فوقهم﴾<sup>(10)</sup> ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾<sup>(11)</sup> ﴿افتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقديمهم فيه وتركه سنة لنا.

إقامة الصلاة فكيف أفرت؟ قُلْتُ: إظهاراً لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿والذين استمسكوا بالكتاب﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(12)</sup>.

﴿وإذا نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعهنا ورفعناه كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾<sup>(1)</sup> ومنه نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرى: بالطاء من أظل عليه إذا أشرف ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ وعلما أنه ساقط عليهم وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكريهم وكان فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خَزَّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليميني إلى الجبل فرحاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ على إرادة القول أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بقوة﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه أو وانكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه كقوله: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾<sup>(2)</sup> ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار ﴿لعلكم تتقون﴾ ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: ﴿وتذكروا﴾، وقرى: ﴿واذكروا﴾ بمعنى: وتذكروا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ بَشَرًا مِمَّنْ شِئْنَا أَن نَقُولُوا إِنَّمَا إِلَهُكُمَا آلُ آدَمَ بَيْنَ يَدَيْهِمَا فَفِي جَنَّةٍ مِّنَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَاهُمَا مِنْهَا نَائِمًا قَالَا لَنَجِدُهُمَا وَكَانَ آدَمُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(3)</sup>

(6) قال أحمد والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم، فتدخل اليهود في عمومها؛ لأن كل واحد من بني آدم يصق عليه الأمران جميعاً، أنه ابن آدم، وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا، إلا آدم عليه السلام، وإنما لم يذكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة، باللف اختصاراً، وإيجازاً.

(7) سورة الأعراف، الآية: 163.

(8) سورة الأعراف، الآية: 164.

(9) سورة الأعراف، الآية: 167.

(10) سورة الأعراف، الآية: 171.

(11) سورة الأعراف، الآية: 175.

(1) سورة النساء، الآية: 154.

(2) سورة الرحمن، الآية: 33.

(3) قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخيل على كلام الله تعالى، فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف لمعقول، ويجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك قرره الأكثرون على ظاهره وحقيقتة، ولم يجعلوه مثلاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فاش أعلم بذلك.

(4) سورة النحل، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 11.

قوله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ موضع حططناه أبلغ حط؛ لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه<sup>(1)</sup>، وقيل معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

فإن قُلْتُ: ما محل الجملة الشرطية؟ قُلْتُ: النصب على الحال كأنه قيل: كمثال الكلب نليلاً دائم الذلة لاهناً في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوق على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب ﴿فَمَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، ونكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به، ﴿فَأَقْصَصْ﴾ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عقابته إذ ساروا نحو سيرته وزاغوا شبه زيغها، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري ساء مثل القوم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ إما أن يكون معطوفاً على كذبوا فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصو أنفسهم بالظلم لم يتعداها إلى غيرها ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حمل على اللفظ و ﴿فَقَوْلُكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمُ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ  
بِهَا وَكَمْ أَهْلٌ لَّا يَبْغُرُونَ بِهَا وَكَمْ آدَاءٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ  
بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٦﴾

﴿كثييراً من الجن والإنس﴾ هم: المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الأذان، وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لنحو النار، ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك بلوكاً عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة نره النار<sup>(2)</sup>، ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا، والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ﷺ مع علمهم أنه النبي الموعود وأنهم

وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَكِنَّهُمْ يَرْجُمُونَ ﴿٧٦﴾

﴿وكنكلك﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نفصل الآيات﴾ لهم ﴿ولعلمهم يرجعون﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم فصلها. وقرئ: نريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَاسْتَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ  
السَّيْطَلُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾

﴿واتل عليهم﴾ على اليهود ﴿نبا الذي آتيناه آياتنا﴾ فاستلخ منها ﴿هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل: من الكتانين اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله﴾ فاستلخ منها ﴿من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره﴾ فاتبعه الشيطان ﴿فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته وقرئ: فاتبعه بمعنى: فتبعه﴾ فكان من الغاوين ﴿فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟ فالحوا عليه ولم يزلوا به حتى فعل.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْاَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ  
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَأْهَتْ أَوْ تَرَكُوهُ يَلْهَثُ ذَلِكُ  
مَثَلُ الْغَاوِرِ الَّذِي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاصْصِ أَنْفُسَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ  
﴿٧٦﴾ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَالْوَطِينِ  
﴿٧٧﴾ مَن يَبْذُ اللَّهُ فَمَوْ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ  
﴿٧٨﴾

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ لعظمانه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قُلْتُ: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قُلْتُ: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو: فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ فصفته التي هي مثل في الخسة والضعفة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها. وهي حال نوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه أي: شد عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرك وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع

(2) أبو عبيدة في كتاب: غريب الحديث، الزيلعي 1/473.

(1) لم يخرج الزيلعي 1/473

الكليبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

الاستدراج استفعال من الدرجة بمعنى: الاستعداد أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى:

فلو كنت في جبِّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهرة وتعلم اني عنكم غير مفحم

ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب

طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر

بعض، ومعنى ﴿سنستدرجهم﴾ سنستدنيهم قليلاً قليلاً

إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾

ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم

في الغي، فكلما جند عليهم نعمة ازدانوا بطراً وجدنوا

معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترانف النعم ظانين

أن مواترة النعم اثره من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه

وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه.

وَأَمَلِ لَهُمْ أَنْ يَكِيدُوا كَيْدِي مَيِّنٌ ﴿٧٧﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا صَلَّحْتُمْ مِنْ

جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٨﴾

﴿وأملي لهم﴾ عطف على سنستدرجهم وهو داخل في

حكم السين ﴿إن كيدي متين﴾ سماه كيداً لأنه شبيه

بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان

﴿ما بصاحبهم﴾ بمحمد ﷺ ﴿من جنه﴾ من جنون،

وكانوا يقولون شاعر مجنون، وعن قتادة: أن النبي ﷺ:

«علا الصفا فدعاهم فخذأ فخذأ يحذرهم بأس الله». فقال

قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح.

أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ

وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ يَقْنُنُ صَاحِبُهُمْ يَقْنُوهُ وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ ﴿٧٩﴾

يُنْزِلُ اللَّهُ سَوْسَىٰ مِمَّا يَشْتَأُونَ مِنَ السَّمَاءِ لَعَلَّ حُنَاقًا يَسِفُونَ ﴿٨٠﴾

﴿أولم ينظروا﴾ نظر استدلال ﴿في ملكوت السموات

والأرض﴾ فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت الملك

العظيم ﴿وما خلق الله من شيء﴾ وفيما خلق الله مما

من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم

خلقوا للنار ﴿أولئك كالأنعام﴾ في عدم الفقه والنظر

للاعتبار والاستماع للتدبير ﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام عن

الفقه والاعتبار والتدبير ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الكاملون

في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم

بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم

على النار.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ

سَيُزَوِّرُونَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾

﴿و لله الأسماء الحسنی﴾ (1) التي هي أحسن الأسماء؛

لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك

﴿فادعوه بها﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين

يلحدون في أسمائهم﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن

الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنی، وذلك

أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدر يقولون

بجهلهم (2): يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخي، أو أن

يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنی نحو أن يقولوا: يا الله،

ولا يقولوا: يا رحمن وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو

ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنی﴾ (3)

ويجوز أن يراد (4): لله الأوصاف الحسنی وهي الوصف

بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصوفه بها،

وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشبهة القبائح

وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية

ونحوها، وقيل (5): الحادهم في أسمائه تسميتهم الأصنام

ألها، وإشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٨٢﴾

لم قال ﴿ولقد زرنا لجهنم كثيراً﴾ (6) فأخبر أن كثيراً

من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار أتبعه قوله ﴿وممن

خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ وعن النبي ﷺ أنه كان يقول

إذا قراها: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن

قوم سوسى أمة يهدون بالحق» (7) وعنه ﷺ: ﴿إن من أمتي

قوماً على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام» (8) وعن

قال أحمد: أي، مما يجوز عليه، وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالسيف

والعارف، ونحو ذلك.

(2) قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد؛ لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء

لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك،

ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها

إلى ذاته، وهذا أدل على الحرمان منه على مثل أبيض الوجه،

ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال أضافه إليه تنزيلاً

على زعمهم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 110.

(4) قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها،

فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم

القدرة، والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق

أفعالهم، ويعظم الله تعالى بانه لا يسأل عما يفعل، وإن كل قضائه =

= عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم،

وإن وعده المصلق، وقوله الحق، وقد وعد رؤيته، فوجب وقوعها

إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذروا الذين يلحدون في أوصافه،

فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا يشمل قبرته المخلوقات، بل هي

مقسومة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه

مصلحة، ويحجرون وأسعاً من مغفرتة، وعفوه، وكرمه على

الخطائين، من موحيه إلى غير ذلك من الإلحاد، المعروف بالطائفة

المتلقين عليه المزكئين، لأنفسهم، وهو أعلم بمن اتقى.

(5) قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(6) سورة الأعراف، الآية: 179.

(7) الثعلبي في تفسيره.

(8) رواه أحمد في مسنده 429/4.

(9) رواه الطبراني في تفسيره.

متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت وأيّ فعل من أويت إليه؛ لأنّ البعض أو إلى الكل متساند إليه قاله ابن جنبي وأبى أن يكون من أين لانه زمان واين مكان، وقرأ: السلمي إيان بكسر الهمزة ﴿مرساها﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره، ومنه رسي الجبل وأرسي السفينة والمرسي الأنجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة بلبيل قوله: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿إنما علمهما﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو: وقت الموت تلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا تزال خفية لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والتقليين أهمة شأن الساعة وبوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها؛ لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها أو؛ لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها ﴿إلا بغتة﴾ إلا فجأة على غفلة منكم، وعن النبي ﷺ: إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه<sup>(1)</sup> ﴿كأنك حفي عنها﴾ كأنك عالم بها، وحقيقته كأنك بليغ<sup>(2)</sup> في السؤال عنها؛ لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتفتير عنه استحكم علمه فيه ورضن، وهذا التركيب معناه: المبالغة، ومنه إحقاف الشارب، وإحقافه البقل استئصاله، وأحفي في

يقع عليه اسم الشيء من اجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف ﴿وأن عسى﴾ أن مخففة من الثقيلة والأصل وأنه عسى على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أن يكون قد اقترب لجلهم﴾ ولعلمهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب؛ ويجوز أن يراد باقتراب الأجل اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق؟ قوله: ﴿فبأيّ حثيث بعده يؤمنون﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿عسى أن يكون قد اقترب لجلهم﴾ كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأيّ حثيث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا. قرئ: وينزهم بالياء والنون والرفع على الاستثناف، وينزهم بالياء والجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد وينزهم.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوَقِئِهَا إِلَّا هُوَ ثَمَّكَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بِنَهْيٍ مِّنَّا لَنَلْبِسُكَ ثَمَّكَ حَبْرًا عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٧٧)

﴿يسئلونك﴾ قيل: إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإننا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش. والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أيان﴾ بمعنى:

== بسطه، ومن أنق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير، لأجل بعد العهد تطرية للنكر قوله: ﴿عجل﴾ لنا هذا، والحقنا بذا ال الشحم إننا قد مللناه بحل، أي: فقط، فنكر الالف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى نكرها، وأبقى الأولى في مكانها، ومن ثم استدل ابن جنبي على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعدًا، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، الا ترى أن عبيدًا لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأول آل لم يعدها أول المصراع الثاني؛ لانه بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قوله:

يا خليلي أربعاً واستنجرنا آل منزل الدرّاس من أهل الحلل

مثل سحق البرد عفى بعدك آل قطر مغتاء وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكتة كيف بلغت العرب في رعيتها، حتى عدت القريب بعيداً، والمتقاصر منيداً، فتأملها، فإنها تحفة إنما عند الحدائق الاعيان في صناعتي العربية، والبيان، والله المستعان.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: (40) (الحديث رقم: 6506) ومسلم في كتاب: الغتن وأشرط الساعة، باب: قرب الساعة، (الحديث رقم: 7339).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى، إلا في هذا الكتاب العزيز، وهو لجل من أن يشارك فيها، وذلك أنّ المعهود في أمثال هذا التكرير، أنّ الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في اثنا عشر، فأريد الرجوع لتتيم المقصد الأول، وقد بعد عهده طرى بنكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببديته، وقد تقدّم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسياتي وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ثم اعترض نكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾، إلى قوله: ﴿بغتة﴾ أريد تتيم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كأنك حفي عنها، وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى نكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى، إلا بنوع من الإجمال، كالتنكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدّم، فمن ثم قيل يسألونك، ولم ينكر المسؤول عنه، وهو الساعة اكتفاء بما تقدّم، فلما كرّر السؤال لهذه الفائدة كرّر الجواب أيضاً مجملاً، فقال قل إنما علمها عند الله، ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد =

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَبِيئًا لَنُكْفِرَنَّ مِنْ الشُّكْرِ بِهَا ۖ وَكَلِمَاتُهَا أَهْنٌ مِّنْ صَبِيئًا حَمَلًا لَّكَ شُرَكَاءُ يَمِينًا ۗ آتَيْتُمَا فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾<sup>(١)</sup> ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفرد؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل وبه أنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وقال: ﴿ليسكن﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله واحدة منها زوجها ذهباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم؛ لأنَّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى. والتغشي كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإيتان ﴿حملت حملاً خفياً﴾ خف عليها ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته ﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق، وقيل: ﴿حملت حملاً خفياً﴾ يعني: النطفة فمرت به فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به بالتخفيف، وقرأ غيره: فماتت به من المرية كقوله: ﴿أفتمارونه﴾<sup>(٢)</sup> وأفتمرونه، ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل فارتابت به ﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت، وقرئ: أثقلت على البناء للمفعول أي: أثقلت الحمل دعوا الله ربهما دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحاً﴾ ولداً سويّاً قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولداً نكراً؛ لأنَّ النكورة من الصلاح والجودة والضمير<sup>(٣)</sup> في آتيتنا و لنكونن﴾ لهما ولكل من يتناسل من نريتهما ﴿فلما آتاهما﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلنا له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فيما آتاهما﴾ أي: أتى أولادهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله:

المسألة إذا الحف، وحفي بفلان وتحفي به بالغ في البر به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت، وقرأ ابن مسعود: كأنك حفي بها أي: عالم بها بليغ في العلم بها، وقيل: عنها متعلق بيسئلونك أي: يسئلونك عنها كأنك حفي أي: عالم بها، وقيل: إن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفي تنحفي بهم فتختصمهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به لكنك مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص كسائر ما أرحي إليك، وقيل: كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحد من خلقه.

فإن قلت: لم كرر ﴿يسئلونك﴾ وإنما علمها عند الله؟ قلت: للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه العالم بها وإنه المختص بالعلم بها.

قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۚ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَ لَدُنِّي وَأَخْرِجْ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَخْلُفُوا لِي خَلْفًا ۚ أُولَٰئِكَ لَئِيَسْكُنُوا إِلَيْكُمْ رَغْبَةً وَأَنْتُمْ تُخْلَعُونَ ﴿٨١﴾

﴿قل لا أملك لنفسي﴾ هو: إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما الممالك والعبيد ﴿إلا ما شاء﴾ ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكأنت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزاز المنافع واجتنب السوء والمضار حتى لا يمسنني شيء منها، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ورايحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً ومخطئاً في التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد أرسلت، نذيراً وبشيراً وما من شأني أني أعلم الغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً؛ لأنَّ النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً أي: إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

= كفره إن الإنسان لفي خسر﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأول  
أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبه، والمراد البعض، فهذا السؤال، وارد على التاويلات الثلاثة، وجوابه واحد، ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التاويل الأول، ومما ينصرف إلى التاويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه، ويكون المراد بذلك أن يسكن إليها، لأنَّ ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) سورة النجم، الآية: 12.

(3) قال أحمد: وأسلم من هذين التفسيرين، وأقرب، والله أعلم أن يكون المراد: جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى، والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس، الذي هو الذكر الجنس الآخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسيتين كيت، وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، ولئن كان فيهم الموحدون؛ لأنَّ المشركين منهم أثماً ما مت لسوف أخرج حياً، ﴿وقتل الإنسان ما



فإن قُلْتُمْ: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟  
قُلْتُمْ: المراد به الجنس كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ (4).

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَيْنَاهَا فَلْإِنَّمَا أَتَيْتُمَا بِوَحْيٍ وَإِنْ  
مِن رَّبِّيَ هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَذَى رِّجْمَةً لِّتُؤْمِرُوا بِمُؤْمِنُونَ ﴿٢١٢﴾.

اجتنبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه أي: جمعه، كقولك:  
اجتمعوا، أو جبي إليه فاجتباها أي: أخذه، كقولك: جلبت إليه  
العروس فاجتلاها، ومعنى ﴿لَوْلَا آجْتَيْنَاهَا﴾ هلا اجتمعتها  
افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك  
مفتري أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة ﴿قُلْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ  
مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولست بمفتعل للآيات أو لست  
بمقترح لها ﴿هَذَا بَصَائِرٌ﴾ هذا القرآن بصائر ﴿مِن  
رَّبِّكُمْ﴾ أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد  
العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢١٣﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ ظاهره  
وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة  
وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم  
صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في  
مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول  
القرآن عند نزوله فاستمعوا له، وقيل معنى فاستمعوا له:  
فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَرَدًّا أَلْجِبِئِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ  
بِالْعُدْوَىٰ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢١٤﴾.

﴿وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو: عامٌ في الإنكار من  
قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل وغير ذلك  
﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعًا وخائفًا ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾  
ومتكلمًا كلامًا دون الجهر؛ لأنَّ الإخفاء أدخل في الإخلاص  
وأقرب إلى حسن التفكير ﴿بِالْعُدْوَىٰ وَالْأَصَالِ﴾ لفضل هذين  
الوقتين، أو أراد الدوام ومعنى بالعدو: بأوقات العدو وهي  
الغوات، وقرئ: والإيصال من أصل إذا دخل في الأصيل  
كأقصر وأعتم وهو مطابق للعدو ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ  
الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ ﴿٢١٥﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ هم: الملائكة صلوات الله عليهم،  
ومعنى: عند دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله  
لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾  
ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض  
بمن سواهم من المكلفين.

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل  
نزول آية الزكاة فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو  
كرهاً. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال ﴿وَأَعْرَضَ  
عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافيء السفهاء بمثل سفههم ولا  
تمارهم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم،  
وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل فقال: لا أدري حتى  
أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل  
من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك<sup>(1)</sup>، وعن  
جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام  
بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم  
الأخلاق منها.

وَأِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
﴿٢١٦﴾ إِنَّ الدَّيْتِ أَتَقَرُّ إِذَا سَمَهُمْ مَلَيْتٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَكَرَّرُوا إِذَا  
هُم مُّؤْمِرُونَ ﴿٢١٧﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يُمَدِّدُهُمْ فِي الْوَيْ تَرُّ لَا يَمْشُرُونَ ﴿٢١٨﴾.

﴿وَأِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ وإما ينخسك منه  
نخس بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به  
﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تطلع النزع والنسخ الغرز والنخس  
كأنه ينخس الناس حين يغيرهم على المعاصي وجعل  
النزع نازعاً كما قيل: جدَّ جدَّه، وروي أنها لم نزلت قال  
رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب»<sup>(2)</sup> فنزل و ﴿إِنَّمَا  
يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ ويجوز أن يراد بنزع  
الشيطان: اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه: إنَّ  
لي شيطاناً يعتريني<sup>(3)</sup> ﴿طَيْفٍ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لمة منه  
مصدر من قولهم: طاف به الخيال طيفاً طيفاً قال:

أني لم أبك الخيال بطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل من طاف يطيف كلين، أو من  
طاف يطوف كهين، وقرئ: طائف وهو يحتمل الأمرين  
أيضاً، وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة  
بالله عند نزع الشيطان، وأنَّ المتقين هذه عاداتهم إذا  
أصابهم أذى نزع من الشيطان والمام بوسوسته  
﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه، فابصروا السداد،  
وبقعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما  
إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإنَّ الشياطين  
يمدونهم في الغي أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم.  
وقرئ: يمدونهم من الإمداد ويمدونهم بمعنى: يعاونونهم  
﴿ثُمَّ لَا يَقْضُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى  
يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أنَّ الخبر جار على غير ما هو له، ويجوز أن يراد  
بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى  
الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هو له، والأول أوجه؛  
لأنَّ إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

(1) رواه الطبراني في تفسيره.

(2) رواه الطبراني في تفسيره.

(3) أخرجه الزيلعي في مسنده 481/1.

(4) سورة البقرة، الآية: 257.

عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شفيحاً له يوم القيامة»<sup>(1)</sup>.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة الأنفال مدنية

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا دَاتَ بَيْتِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَيْبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُعِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْتَمِرُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَرْجِئُوا عِنْدَ رَيْبِهِمْ مَعَظَمَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿٤﴾

النفل الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلِ

والنفل ما ينقله الغازي أي: يعطاه زائداً على سهمه من المغنم، وهو: أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلکم نصفه، أو ربعه، ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه، وعند الشافعي رحمه الله في أحد قولي: لا يلزم، ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ المهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ ف قيل له: قل لهم: هي لرسول الله ﷺ، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينقله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداً لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمت<sup>(2)</sup>، وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك، فنزلت، وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجنحت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: إِنَّ الله قد شفى صدري من

المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض، فطرحته وبني ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبه، فماجاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال: «فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذ»<sup>(3)</sup>، وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين<sup>(4)</sup>، وقرأ ابن محيصن: يسألونك علففال بحنف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام، وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال، أي: يسالك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال.

فإن قُلْتُ: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؟ قُلْتُ: معناه أَنَّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، والمراد أَنَّ الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسمهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي ﴿فاتقوا الله﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متأخين في الله ﴿وواصلحوا ذات بينكم﴾ وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسما غنائمكم بالعدل فقالوا: قد اكلمنا وانفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض.

فإن قُلْتُ: ما حقيقة قوله ذات بينكم؟ قُلْتُ: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفق كقوله: ﴿بذات الصلور﴾<sup>(5)</sup> وهي مضمراتها لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البين كقولهم: أسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب، وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أَنَّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ومعنى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ كَامِلِي الإِيمَان، واللام في قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إليهم أي: إنما الكاملون الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ ﴿وجلت قلوبهم﴾

(4) رواه أحمد في مسنده (322/5).

(5) شطر آية ورد في اثني عشر موضعاً منها: سورة آل عمران، الآية: 119.

(1) نكره ابن الجوزي في الموضوعات والتعلبي والذيلي، الزيلعي 1/ 483.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النفل، (الحديث رقم: 2737)، والحاكم في المستدرک 2/ 326.

(3) رواه أحمد في مسنده (181/1) وأبو عبيدة في الأموال (الحديث رقم 756).